مسرحيات عالمية

١٤

نصف شهرية

جسر آرتا

ابروثبت

« الثمن الفادح »

تأليف: چورج ثيوتوكا

ترجمة وتقديم: د. نعيم عطية

أقرتها لجنة المسرح العالمي

المسرح العالمي
هيئة الإذاعة والمسرح والموسيقى
الدار القومية للطباعة والنشر
الثقافة والإرشاد القومي

١٥ اكتوبر ١٩٦٥

جسر آرتا
أو
الثمن الفادح

TO YEPIRI TIS ARTAS

تأليف: چورج ثيوتوكا

ترجمة وتقديم: دكتور نعيم عطيه

تقديم بقلم :

الدكتور محمد إسماعيل الموافى

مدير السلسة

تخطيط دقيق

ليس من سياسة هذه السلسلة الدخول فى مهاترات مع أحد . وقد خصصت مساحة « تقديم » فيها لمناقشة ما هو جدى ومفيد . وربما لاحظ القراء أن أكثر أعداد السلسلة صدرت حتى الآن بدون « تقديم » . ذلك لأن هذا الحيز لا يشغل إلا للضرورة .

وتثبت أرقام البيع التى نحرص على تتبعها واحترامها أن السلسلة تلاقى إقبالا شديداً عليها . ولكن صحب هذا الإقبال الشديد من القراء حملة من بعض الأقلام وكل ما أرجوه ألا تكون إحدى هاتين الظاهرتين سبباً فى الأخرى .

ونحن نفتح أعيننا وصدورنا لكل أنواع النقد ولكن نفضل منه النوع الذى يتحرى أصحابه الدقة ويكون فى نقدهم فائدة . ويؤسفنا أن عدداً من الذين أسهموا فى الحملة قد أصيبوا بالمبالغة واندفعوا مع التهويل .

وهؤلاء لم ينسبوا إلى السلسلة تهاوناً فى الترجمة أو فى التقديم أو عجزاً فى

مستوى الكُتاب والمترجمين . الحمد لله . فما وجهوه من نقد يمكننا تلخيصه فى نقطتين : —

أولا : نقص التخطيط ، وثانياً — وهو مترتب على أولا — : — نشر مسرحيات سبق نشرها ويقول أحد هؤلاء أنّ من بين ١٢ عدداً نشرتها مسرحيات عالمية ستة مسرحيات سبق نشرها . ومن حق القارىء أن يعلم الحقيقة بالتفصيل . فمن بين الأعداد ال ١٢ سبعة جديدة لنج وثلاثة : (القديسة جون ، بلدتنا ، قطـة على نار) قد أعادت السلسلة ترجمتها . وواحدة (رومولوس) نشرتها مجلة المسرح وأعادت السلسلة نشرها بإضافة « تقديم » و « مقدمة » والعدد السادس وهو يضم مسرحيتى (القاعدة والأستثناء ، ومحاكمة لوكولوس) نشرت مجلة المسرح إحداهما ونشرتها السلسلة مضافاً إليها المسرحية الأخرى ومضافاً إليها مقدمة من أحسن ماكتب تعريفاً بمذهب الكاتب العبقرى برخت .

وفضلا عن هذه المقدمات والإضافات فنشر المسرحية فى كتاب يحفظه القارىء ويرجع إليه عند الحاجة غير نشرها فى مجلة تنسى فى قطار . وفضلا عن هذا كله فنشر المسرحيات فى كتب بعد نشرها الأول فى صحف أو مجلات تقليد معمول به فى جميع أنحاء العالم .

وقبل أن أبين الأسباب التى جعلت السلسلة تعيد ترجمة المسرحيات المذكورة أود أن أعرض على القارىء أرقام المرتجعات ليطرحها من ستة آلاف نسخة لكل عدد فيكون باقى الطرح هو مبيعاتنا فى مدة عرض تتراوح بين أسبوع وعشرة أيام فقط . ومنها يتضح أن السلسلة ، لكونها تملك حاسة السوق ، فقد سجلت أرقاماً قياسية فى تاريخ نشر الكتب العربية المسلسلة .

مسرحيات أعيدت ترجمتها	عدد المرتجع من ستة آلاف	مسرحيات أعيد نشرها	عدد المرتجع من ستة آلاف
(١) القديسة جون	لا مرتجع	(١) رومولوس	٣٠٠
(٢) بلدتنا	٢٥٠	(٢) الاستثناء	٣٥٠
(٣) قطة على نار	(لم ترد البيانات بعد)		

ومن المبادىء التى نسير عليها وجوب إعادة ترجمة الآثار الخالدة إذا ظهر بترجماتها السابقة : —

(١) أخطاء فى الفهم .

(٢) قصور فى التعبير .

(٣) نقص فى التقديم والتعريف .

(٤) قدم العهد .

(٥) كل هذه الآفات مجتمعة .

ومن ثم كانت إعادة ترجمة « القديسة جون » فإن ترجمتها السابقة الوحيدة بقلم أحمد زكى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ترجع إلى عام ١٩٣٨ . أى قد مضى على ترجمتها قرابة ثلاثين عاماً ثم إن ترجمتها فى سلسلة مسرحيات عالمية قد ضمت إليها مقدمة مؤلفها (جورج برنارد شو) وغنى عن البيان أن المقدمة فى حد ذاتها عمل علمى جليل .

ومن هنا أيضاً كانت إعادتنا لترجمة « بلدتنا » . ونحيل المعترض — إذا كان ما يزال فى إمكانه الحصول على نسخة منها — إلى « نبذة عن الطبعات » ،

المنشورة فى أول صفحة بها . وسوف يتضح له أن الترجمة القديمة عن أصل والجديدة عن أصل آخر وبينهما فارق كبير فى الزمن وفارق أكبر فى المادة . ناهيك عن مقدمة تبلغ خمسين صفحة بدلا من ثلاث صفحات فى الترجمة القديمة .

أما عن « قطة على نار » فنى « تقديمها » من الأسباب الحافزة على إعادة ترجمتها ما يكفى لإقناع أى شخص خلا من الهوى ولم يعمه الغرض .

وسوف تعيد هذه السلسلة ترجمة الروائع التى شوهتها الترجمات السابقة . فمثلا قد عهدت إلى الأستاذ يحيى حقى أن ينقل لها مسرحيات موليير تباعاً ، وسوف يظهر فى هذه السلسلة قريباً أثر خالد هو ترجمة الشاعر أحمد رامى (لروميو وجولييت) وسوف نتابع نقل شكسبير كلما توفر لنا القادرون على نقله إلى العربية دون إزهاق لروحه .

ومن خطة هذه السلسلة أيضاً أن تعيد نشر الترجمات القديمة التى احتلت مكاناً عالياً فى تراثنا المسرحى . ومن هنا كان ارتباطها مع الدكتور طه حسين لإحياء مترجماته عن المسرح الفرنسى والإغريقى .

وإلى هذا كله أشار الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء لشئون الثقافة والإرشاد القومى الذى أنشأ هذه السلسلة وأرساها على قواعدها . وذلك فى تقديمه لها بالعدد الأول .

والخطة العامة التى نلتزم بها تقسم أدب المسرح إلى قسمين : قديم وآخر حديث ومعاصر وتخصص لكل إثنى عشر عدداً فى السنة . أما الحديث والمعاصر فلكى يقف القراء على آخر التطورات فى المذاهب الفنية . وأما القديم ،

فلإيماننا بأن الجديد لا يفهم إلا على ضوء القديم ، وخير المجددين فى الفن وأقدرهم على التجديد هم الذين تعمقوا فهم القديم . أما أيها يظهر فى السلسلة قبل أيها فذلك يتوقف إلى حد كبير على ظروف الكتاب والمترجمين والمراجعين . والمهم فى نهاية العام أن لا يطغى قسط القديم على نصيب الحديث أو العكس . هذا هو التقسيم العددى .

أما خطتنا النوعية فتقضى بالعدل فى تمثيل جميع الجنسيات التى أنتجت أدباً مسرحياً رائعاً إبتداء من اليونان القدامى إلى أمريكا اللاتينية . فإلى جانب المسرحيات الفرنسية والإنجليزية والأمريكية والألمانية والأسكندنافية والروسية والإيطالية تفسح السلسلة مجالا لمسرح أسبانيا التى تربطنا بها صلات وثيقة فى التاريخ والأدب ، وفوق هذا وذلك القرب الشديد بيننا فى مرحلة التطور الاجتماعى الحالية . ولعل القراء قد أحسوا هذا فى العدد الماضى « مركب بلا صياد » . والمسرحية المنشورة فى هذا العدد وهى عن اليونانية الحديثة دليل على أننا نسعى دائماً نحو توسيع مفهوم (المسرح العالمى) وارتباطنا مع بعض الأدباء لنقل نماذج جيدة من المسرح الهندى والصينى واليابانى توسيع أكبر لهذا المفهوم ، ودليل أكثر على أننا نفهم أن العالمية ليست وقفاً على أوروبا الغربية .

ولن ننسى فى هذا الزحام مسرحنا العربى ففيه من الآثار مالا يخجلها أن تظهر فى مجلد واحد مع السيل الذى يهبط علينا من الغرب .

وإن نظرة واحدة إلى قوائم المسرحيات التى ظهرت فى هذه السلسلة والتى تحت الطبع والتى تحت الترجمة المبينة فى آخر هذا العدد لكفيلة بأن تقنع القارىء بأننا نجند خيرة الكتاب والمترجمين فى خدمته .

أفبعد هذا يشك أحد فى أن لدينا تخطيطاً ، بل تخطيطاً دقيقاً ؟

محمد اسماعيل الموافى

مقدمة بقلم المترجم

جورج ثيوتوكا و «جسر آرتا»

المسرح اليونانى الحديث

يمكن أن يعتبر جريجورى كسينوبولوس Grégory Ksenopoulos الذى عرف بكتاباته القصصية أول الكتاب اليونانيين الذين استقوا موضوعات مسرحياتهم من الحياة الاجتماعية اليونانية المعاصرة لهم .

ولقد سجل كسينوبولوس فى كثير من مسرحياته - مثل « فوتينى ساندرى » و « ستيلا فيولاندى » (١٩٠٩) و « الملاك » و« الزواج » و « الابنة الوحيدة الحبيبة » (١٩١١) - صورا دقيقة لعادات الأسرة الأثينية وأخلاقياتها .

وربما كان إخفاق مسرحية كسينوبولوس المبكرة « سر الكونتيسة فاليرياناس » هو الذى جعله يترك « المسرح الذهنى » إلى « المسرح الاجتماعى » مقرراً أنه ماكان يريد المضى فى طريق مقفل بتقديم أعمال لا يحسها الجمهور ولا يتجاوب معها ، فلم يكن من المحبذين - على حد قوله - لمذهب « الفن للفن » .

ثم يطالعنا تاريخ المسرح اليونانى الحديث بكاتب آخر هوسبيروس ميلاس Spiros Mélas مؤلف « ابن الظلام » و « القميص الأحمر » و « البيت

الحرب » و « الحياة كلها ليلة واحدة » و « الأبيض والأسود » ، وهى مسرحيات تهدف من خلال أسلوب يجمع بين « الطبيعية » و « المثالية » إلى تجديد دعائم الأسرة اليونانية ببث فهم جديد فى الروابط الاجتماعية والأخلاقية.

أما بافلوس نيرفاناس Pavlos Nirvanas فقد كان كاتباً تسرى فى مسرحياته صوفية وغموض تعوضان الكثير من النقص فى بنيانها الدرامى . وربما كانت مسرحيته « المعمارى مارثاس » تقودنا إلى الجو الشاعرى الذى نلقاه فى مسرحية « جسر آرتا » ولقد اعتقد « المعمارى مارثاس » أن باستطاعته أن يخفى نوائب الحياة وحقائقها المفجعة عن أحبائه محتفظاً بمعرفتها المؤسية لنفسه .

ولقد أدخل الشاعران الكبيران نيقوس كازاندزاكيس Nicos Kasantsakis (فى مسرحياته « نيكيفور فوكاس » عام ١٩٢٧ و « يوليس » و « المسيح » عام ١٩٢٨) وانجيلوس سيكيليانوس Angelos SeKelianos (فى مسرحيته « أنشودة الوردة » عام١٩٣٢) — أدخلا المسرحية الفلسفية المستوحاة من التاريخ .

وقد انصرف الكاتب المسرحى بانديليس هورن Pandélis Horne بعد أن تأثر بجوركى وإبسين إلى استلهام الأدب الشعبى اليونانى ، بل ووقف وقفة طويلة — قبل جورج ثيوتوكا — أمام أغنية « جسر آرتا » .

جورج ثيوتوكا

وجورج ثيوتوكا واحد من أشهر الأدباء اليونانيين المعاصرين . ولد ١٩٠٦ ودرس القانون والأدب بجامعات أثينا وباريس ولندن، واشتغل مديراً للمسرح القومى اليونانى ما بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٤٦ وعامى ١٩٥٠ و١٩٥٢ . وقد ألف ثيوتوكا القصة والرواية والقصيدة والدراسة ، كما ألف المسرحية . وقام بعدة رحلات خارج وطنه . كما ترجمت أعماله إلى عدة لغات .

ومن أعماله الروائية « آرجو » عام ١٩٣٦ وقد ترجمت إلى الانجليزية والسويدية ، و « الشيطان » عام ١٩٣٨ « وليونيس » عام ١٩٤٠ وترجمت إلى السويدية و « الطريق المقدس » عام ١٩٥٠ و « يوروبيديس بيندوزاليس » وهى مجموعة قصصية كتبها عام ١٩٣٧.

ومن مقالاته « ساعات البطالة » عام ١٩٢٩ و « الروح الحر » عام ١٩٣١ و « المشكلة الاجتماعية » عام ١٩٣٢ و « على عتبة العصر الجديد » عام ١٩٤٥ و « مشكلات عصرنا » عام ١٩٥٦ .

وقد جدد ثيوتوكا فى كتابة المقالة جاعلا منها تعبيراً عن رؤيته المباشرة ، مما تصبح معه المقالة وسطا بين الخلق والنقد ، آخذة على عاتقها المضى قدماً بما هو مطلوب من الرواية والقصة ، والامتداد إلى أفكار سيكلوجية وتفسيرات ذاتية تقصر عنها المقالة التقليدية الجامدة .

كما أصدر ثيوتوكا عام ١٩٤٤ ديوانه « قصائد منتصف الحرب » . ويعد ثيوتوكا من الكتاب الذين لا يحصرون أنفسهم فى إطار بلده وحده ، بل يعتبر العالم كله وطناً له . ولذلك كان من ضمن الكتاب اليونانيين الذين يجاهدون دواما لإدراج الأدب القومى لبلاده فى التراث العالمى .

وقد نشر ثيوتوكا مجموعتين من الأعمال المسرحية ، الأولى عام ١٩٤٤ والثانية عام ١٩٤٧ . ومن أشهر مسرحياته « ثمن الحرية » عام ١٩٥٨ ، « والكيفياديس » عام ١٩٥٩ و « الاعيب الحماقة والحكمة » وقد مثلت هذه المسرحيات بنجاح ، كما ترجمت كوميديته « لقاء فى بنديلى » التى كتبها عام ١٩٥٨ إلى الفرنسية والانجليزية والسويدية والفنلدنية . وفى عام ١٩٥٩ نشرت مسرحية ثيوتوكا الطويلة « الجذور الراسخة » تباعا فى إحدى المجلات الأدبية بأثينا .

و « ثمن الحرية » مسرحية تدور أحداثها فى سنوات الكفاح المرير الذى خاضته اليونان للتخلص من نير الاحتلال العثمانى .

أما » الكيفياديس » فهى بدورها مسرحية تاريخية تتألف من ثلاثة فصول وسبعة مشاهد . وقد طبعت وقدمت بأثينا عام ١٩٦٠ . واستقبلها النقاد بحماسة كبيرة .

ولم يعمد ثيوتوكا فى هذه المسرحية إلى مجرد سرد حادثة تاريخية ، بل غاص فى نفسية البطل ليستجلى أعماقها الإنسانية .

ولم يعتمد فى مسرحيته على الحركة الملفتة للأنظار قدر اعتماده على التأثير الهادىء الذى يسرى إلى قلوب المتفرجين بخطوات بطيئة محكمة واثقة . ولقد كانت شخصية الكيفياديس فى التاريخ شخصية محاطة بالغموض ، يتخلى عنه الجميع ، وتخذله الظروف ، فيقف بمفرده أمام الخطوب كصخرة عاتية .

ولم يعمد ثيوثوكا إلى تصوير هذه الشخصية من زاوية واحدة، هىزاوية بطولتها، بل وضع فى اعتباره أن الأبطال بشر لهم بدورهم عيوبهم ومثاليهم. ولهذا جاء رسم ثيوتوكا لشخصية الكيفياديس — الذى سعى إلى توحيد أطراف الوطن اليونانى — رسما مقنعاً ، لا اصطناع فيه ولا زيف ، فتبدو الشخصية متكاملة بمحاسنها ونقائصها . وأنت تحس أمام هذه الشخصية الوطنية التى قدر لها فى النهاية أن تتهم بالخيانة ، انك لست أمام مجرد كلمات مكتوبة على الورق بل أمام إنسان فى كفاح شاق فى سبيل هدف . وهو فى سبيل ذلك الهدف يتعرض للمكاره والأخطار ويتحطم . وتسهم فى هذا التحطيم صفاته الشخصية ذاتها . ويعترف ثيوتوكا بأن بطلة الكيفياديس كانت له إلى جانب بطولته جوانب نقصه . وفى مقدمتها الغرور والأثرة التى خالطت حلمه الكبير الذى ظهر مبكراً

فى تاريخ اليونان وربما كان له الفضل بعد جيل من الزمان فى أن يلهب الحماسة فى قلب الإسكندر المقدونى .

وكان طبيعياً حتى يستجلى أعماق البطل والقيمة الإنسانية لكفاحه أن يلقى الكاتب الضوء على الوسط المحيط به . ولقد خلص ثيوتوكا إلى عرض الكيفاديس — هذه الشخصية التاريخية الغامضة — عرض دارس يتخذ موقفاً إيجابياً من الموضوع الذى درسه .

ولا يظنن القارىء أن هذه المسرحية ذات طابع محلى بحت . لا يهم إلا اليونانيين ، ولا يستهوى غيرهم ، بل هى فى الواقع عمل إنسانى يتعدى حدود الإقليمية ، ذلك أن المسرحية التاريخية متى عرضت عرضاً إنسانياً تجاوز أبطالها حواجز المكان والزمان ، واستقرت شخوصهم فى قلوب البشر جميعاً .

وتدور مسرحية ثيوتوكا الأخيرة « الجذور الراسخة » فى جو اجتماعى قريب من الجو فى صعيدنا الذى عانى كثيراً من ظاهرة الثأر .

وفى « الجذور الراسخة » نجد فتاة قوية العزيمة ، تنتقل لتعمل مدرسة فى بلدة ريفية يقتل فيها شاب فرداً من أسرة غريمة لأسرته . يختفى القاتل فى بيت تلك الفتاة ، وعندما يأتى ضابط البوليس للتفتيش بحثاً عن القاتل ترفض الفتاة أن تسمح بتفتيش بيتها لمجرد يقينها أنها ربما استطاعت باللين أن تطهر النفوس من نقمة الثأر . وهى بتصرفها هذا تثير حولها شبهات البوليس .

على أن الفتاة ما تلبث أن تقع فى حب الفتى القاتل . وتقرر الهرب معه من القرية ، ولا تصغى إلى نصائح ضابط البوليس الذى عهد إليه بتحقيق القضية وتعقب الجناة ، وهو ضابط شاب يكن للفتاة احتراماً ينم عن حب صامت فى قلبه . ويتخذ العاشقان العدة للهرب من البلدة . والخروج منها إلى حياة جديدة . لكن الماضى يقف لهما بالمرصاد . والاحقاد القديمة لا تنطفىء . ورحى الثأر

دائرة على الدوام ، فيقتل الشاب فى آخر لحظة برصاصة من غريم مجهول لابد أنه واحد من الأسرة المنتقمة .

وهكذا تظل الفتاة موثقة القيد فى القرية التى استشرت فيها نزعة الثأر ، تأكل شبابها وأهلها واحداً تلو الآخر . ونظل نتساءل هل كان الأجدى للفتاة ولحبها أن تسلم حبيبها إلى البوليس ، حتى تضع حداً لحلقة الثأر المفرغة ؟

مسرحية « جسر آرتا »

أما مسرحية ثيوتوكا « جسر آرتا » التى نقدمها على هذه الصفحات فقد كتبها عام ١٩٤٢ ونشرت عام ١٩٤٤ ومثلت للمرة الأولى فى مدينة «آرتا» ذاتها باليونان فى إبريل عام ١٩٤٦ ضمن سلسلة من المسرحيات قدمتها جمعية « سكوفاس » الأدبية . وقد ترجمت هذه المسرحية إلى السويدية والفرنسية والانجليزية والفنلندية وأذيعت من محطات أستكهلم ولندن (البرنامج الثالث) وهلسنكى .

وقوام هذه المسرحية أغنية شعبية يونانية تحكى أسطورة « بناء جسر آرتا » ومالابسه من تضحية . ولهذه الأسطورة أصداء فى الأوساط الشعبية المختلفة ، إذ كانت العادة تجرى حتى فى قرانا ومدائننا إلى أمد ليس بعيداً بأن يذبح زوجان من الدجاج فى الأرض قبل أن ترسى فيها دعائم المبنى المراد تشييده .

وقد اتخذ ثيوتوكا من تلك الأسطورة الشعبية أساساً لمسرحيته الحالية لينسج حول الأغنية المتداولة عملا دراميا . ويمضى عازف العود فى المسرحية — وهو راو من نوع خاص — فينشد أبيات الأغنية الشعبية ، بينما تجرى الأحداث الدارمية من حولها وكأصداء لها .

ويمكننا أن نمضى فى استجلاء جوانب هذا العمل الدرامى الأخاذ من خلال

استعراض شخصياته ، وموقف كل منهما وعلاقتها بالشخصيات الأخرى من ناحية ، وبنيان العمل ككل من ناحية أخرى .

رئيس البنائين :

رئيس البنائين فى محنة . أضحت نظرته صلبة ، وأمسى وجهه جامداً كأنه قد من الحجارة التى يعمل فيها . كل ما فيه من روح وحياة قد تحجرت .

ما الخطب ؟ نسمع فى بداية المسرحية الأجراس تمزق سكون الليل . إنه الجسر الذى يشيده رئيس البنائين — جسر آرتا — انهدم للمرة الثالثة .

إنه لنحس كبير . ما من أحد يعرف ما الذى يحدث . رئيس البنائين متعب . الحجارة ما عادت تطيع رئيس البنائين ذائع الصيت الذى انحدر من أجيال من الصناع المجيدين ، جيلا بعد جيل ، وأباً عن جد حملوا إليه أساليب الحرفة وأسرار التربة .

ذهب عمل رئيس البنائين طوال الشهر الماضى بأكمله سدى ، ومثل المرتين السابقتين اللتين انهار فيهما الجسر لم يقدر أحد أن يتعرف على مصدر الشر الذى وقع . لقد مضى رئيس البنائين ينقب بين الأنقاض ، ويرفع الحجارة ، باذلا جهده ليعثر على العيب الخفى الذى جلب الدمار ، لكن هيهات فهو لا يفهم ما الخطب ، ولا أحد يفهم . فهذه الأرض التى بنى عليها رئيس البنائين جسر آرتا أمتن أرض شقها بمعوله . وهو واثق من العمل الذى قامت به جماعته وثوقه من رسومه وأدواته . وهو يعرف مواده ، كما تعرف ربة البيت الماهرة كل سر من أسرار بيتها .

ولم ينجح أحد فى أن يغشه قط . والبناء يحرسه بالليل رجال مسلحون هم من أتباع رئيس البنائين المخلصين . ولم يتسلل إلى عمائره أحد .

إن جسر آرتا ركبته الشياطين ، ويخشى أن تتسلل إلى حياة رئيس البنائين كلها . منذ أن أدرك الدنيا وهو فى صراع مع الحجارة والناس ليخلق العمل الذى يقدر له الخلود على مر الزمن ، وهذه قصة يروق للشياطين أن تتلهى بها.

لابد أن الشياطين تبغى منه شيئاً ، فيفتح رئيس البنائين الشباك بعنف ويطل منه صائحاً فى الظلام : « يا شيطان الليل ، تكلم . ماذا تطلب ؟ أريد أن أفرغ من الحساب .. إنى أناديك أن تظهر ونتفاهم » .

إن الحجارة لا تنهار متى كان كل شىء على ما يجب . وعندما طلع الشبح فى أطلال الجسر صاح رئيس البنائين قائلا أيها الشبح ماذا تريد منا ؟ قل ، ماذا تطلب ؟

وطلب الشبح من رئيس البنائين ثمن العمل الذى يريد أن يخلده فى هذه الأرض .

– سأدفع أيها الشبح . كل فدية تهون فى سبيل أن تدعنى أرسى جسر آرتا.

لكن الشبح يسدد طعنته إلى الأعماق :

انت يا رئيس البنائين الذى ستدفع . ستدفن هنا مخلوقة رقيقة خدوماً تجدها بالنهار إلى جوار أرجوحة طفلك ، وبالليل إلى جوارك .

ها هو رئيس البنائين قد وضع أمام الأمر الواقع . وهو حر فى أن يقبل أولا يقبل . حر فى أن يقدم زوجته قرباناً للشياطين أو أن ينفض يديه من بناء جسر آرتا .

لكن فى غمرة اليأس والأسى تدب العزيمة فى القلب المزعزع والفكر المرتج . « ما الذى يعنينا ؟ ألسنا رجالا أحراراً أقوياء ؟ ألسنا شجعاناً غير هيابين ،

تجرى الفتوة فى دمائنا ؟ ابسطو الشراع ! لتحيا الحرية ! الوجود يتلاشى ، فليضح حطاماً ! تحية أيها الشبح ! »

أضحت كلمات رئيس البنائين ملتوية ، ونظرته سقيمة . أيضحى بتلك المخلوقة المسكينة التى تحتل فى حياته أعظم مكانة ؟ ماذا كانت حياته ستكون بدونها ، تلك الزوجة التى تبخس حق نفسها على الدوام ؟ كانت ستكون شيئاً مهملا ، جثة عارية ملقاة إلى الكلاب !

كان رئيس البنائين يمشى بخطوات ملؤها الكبرياء على التربة الدافئة . عشق شمس الجنوب ، والضياء الساطع ، وأرسى وشيد بقدر ما استطاع قلبه وجسده . لقد تاق إلى أن يكون مثل حجارته لا يتطرق إليه ذبول ، ولا تطوله شيخوخة ، وأن يعلو على العدم ، لكن ها هو الموت قد أتى ليغمره .

حتى اليوم كان رئيس البنائين يصارع الحجارة وهو يغنى ويضحك . كان شاباً والحياة سهلة ، وكان الله كريماً سمحاً . أما الآن فالحجارة تتحكم فى حياته ، ولم يعد يسيطر عليها . إنها أضحت تثقل فكره وجسمه ليل نهار ، وتجثم على حبه لزوجته ، ولهفته على ولده ، وعلى صلاته إلى ربه فى الصباح . لقد أضحى مركباً بلا ملاح ، روحا مزعزعة .

تأزمت الأمور الآن ، وأضحت حرية الرجل المهاب خلى البال موضع الحديث :

كان على رئيس البنائين أن يتخذ قراراً . وقد اتخذ قراره فى شراسة وقسوة . رفض حتى الحل الوسط . رفض الرقة والإشفاق ، فالمرء يكون قاسياً عندما يتعذب .

و تأتى اللحظة الحاسمة التى يكون على رئيس البنائين أن يتخذ فيها قراره المهول .

يسأله البناؤون بعد أن نزلت الزوجة مختارة إلى قاع حفرة تحت أعمدة الجسر : نحن فى انتظار أن تأمر. فيتردد رئيس البنائين ملياً . الحبل أضحى الآن فى يده هو. أيأمر ؟ ! بما يأمر ؟ ! » بما يقوله لك قلبك .. بما تريد أيها الرئيس .. بما تعتقد أنه الصواب « ويدوى كلام مرؤوسيه فى أذنيه ويمزق أعماقه » ويستحثه مساعده ، فالموقف لا يحتمل التلكؤ والإبطاء : « انتبه ، أيها الرجل ، لوكنت أهلا لأن تحكم هذا المجموع . أشفق علينا ، وأشفق عليها هى أيضاً » .

ويعلن رئيس البنائين قراره . لقد عزم وصمم . وبكل إرادة وحرية واختيار وشجاعة أصدر حكمه : « رئيسكم قدأمر بعدم الإشفاق والنكران ، وبأى شىء آخر تتوق إليه قلوبكم الحجرية . إنى آمر : سدوا الحفرة . هيا . »

لقد بنى الجسر ، لكن بأى ثمن ، وبأية تضحية ؟ بزوجته الوفية الهادئة التى دفنت فى الحجر. وعندما تقبل أمها العجوز تطالب بابنتها ، يحاول رئيس البنائين أن يبرىء نفسه من ذنبه ، ويمسح دم زوجته عن أصابعه الملوثة .

ولعنته العجوز ، وتنبأت بما سيصير إليه حاله : ، تسينكرك رفاقك حينما يفيقوا من سحرهم ، وشعبك سيلقى بك بعيداً عنه ، وسيهجرك ابنك أيضاً عندما يحس فى حضرتك هول العزلة المحيطة بك . مامن قلب بشرى سيحن إليك بعد الآن ، ويخفف من مرارتك . ستهيم من بلد إلى بلد يتيما غريباً . ويل لك ..

مضت سنين كثيرة ، والجسر شامخ متزن . وها هى ثلة من الفتيان والفتيات يرقصون ويغنون فى رحابه . وعندما يهبط الليل يقبل عجوز يطوف مثل الشبح حول الجسر ، فينفر منه الفتيان والفتيات . إنه غريب عن بلدتهم حط بها منذ أول أمس . لابد أن يصرفوه ، فهم لا يريدونه . ومن حقهم هذا فهم

فى بلدتهم وهو غريب لاتعجبهم طلعته ، ولا يروق لأحد . ما من أحد يجرؤ أن يحدثه ، وتسرى الرعدة الباردة فى أوصال من ينظر فى وجهه . لابد أنه ارتكب جرماً وأتى للاختفاء فى البلدة . أو ربما هو أبرص يهيم على وجهه .

هذا هو رئيس البنائين بعد السنين الطويلة . ما من أحد يعرفه من أبناء الجيل اللاحق . ما من أحد يذكره . الكل يتحاشونه ، ويفرون منه . هذا هو رئيس البنائين الذى كد وكدح ليبنى للبلدة جسرها ، بل واقتضاه ذلك أن يدفن زوجته فى الحجر .

كل شىء نسى ، حتى ذلك اليوم المشهود الذى وقف الجسر على قدميه . منذ ذلك اليوم ورئيس البنائين لا يحيا . هو جثة هامدة ، وعظام نخرة . ولا مقصد له يذهب إليه . تقذف الأنواء به هنا وهناك بلا حساب . دفن كل شىء مع زوجته ، ولم يبق له إلا العدم . ولى الناس مبتعدين عنه ، كما لو كان مصاباً بالطاعون أو الجرب . لم يوجهوا إليه قولا جارحاً ولا لوماً . ليس لأحد شكوى ضده ، ولا أحد يطلب منه شيئاً . تركوه هكذا يهيم كصعلوك لفظه حتى الصعاليك .

السنين تلو السنين ورئيس البنائين هائم على وجهه فى قرى ومدائن ، فى بحور وجبال . وها هو يعود إلى الجسر مثل القاتل الذى يحوم بالليل حول مكان جريمته . ها هو الرجل القوى أضحى ضعيفاً مهدما تجتاحه الهموم مثل طفل صغير . فى سبيل بناء جسر آرتا ضاع من الرجل كل شىء . ومثل فراشة اندفع إلى جذوة اللهب واحترق .

ومع همسات النسيم المنساب تحت الأعمدة ، وفى ثنايا الغاب وخرير الماء وحفيف الشجر تعود روح الزوجة لتلتقى برئيس البنائين الذى جاء مهدماً تحت جنح الليل إلى الجسر الذى بناه ولا يتعرف رئيس البنائين الذى هدته الشيخوخة والمرض على زوجته . ها هى تجلب الأمل إليه ، وتصفح عنه .

الذكرى على مر الأيام باقية . بعد أن قدمت التضحية ، وشيد العمل ، واحترق من احترق ، وضاع ما ضاع ، يحق الغفران ، ويزول التوتر والعناء عن الأرواح التى دوختها اضطرابات الزمن المريض ، وتنزل عليها السكينة والصفاء .

ويستحيل كل شىء إلى أغنية تترنم بها الأجيال ، وتنطلق كلماتها بعد أن يندثر الرجال لا يدركها عدم ، ولا يلحقها فناء .



تدعونا قصة رئيس البنائين إلى أن نتأمل معنى السعادة . من هو الرجل السعيد ؟ يقول الإغريق لا يمكنك أن تحكم على إنسان بأنه سعيد ما دام على قيد الحياة . قد ينزل الغد بمن يبدو فى نظرنا أكثر الناس سعادة — ينزل من النوازل ما يجعلنا نتراجع عن حكمنا عليه بأنه رجل سعيد ، فالمجهول يضمر من النوائب ما قد تتضاءل إزاءها كل لحظة من السعادة عبرت بالمرء من قبل . وربما كانت أكثر شخصيات مسرحية « جسر آرتا » ادراكاً لهذه الحكمة الأم العجوز . وعازف العود الضرير .

يتغير قدر الإنسان كل يوم، فإنسان اليوم ليس إنسان الغد ، وسعادته اليوم ليست حتما سعادته فى غده . لا يعرف المرء كل الشرور التى تحيط به ، والمكارة التى تحف به . ولهذا فإن القول الفصل فى أمر سعادة المرء يكون عندما يوافيه أجله .

لقد أرانا سوفوكليس ذلك فى مسرحيته عن أوديب الملك على الأخص ، إلا أننا نقف هنا وقفة تأمل ومقارنة بين أوديب ورئيس البنائين . إن أوديب أمضى حياته وهو لا يعلم أن سعادته إنما بنيت على دعامة بشعة ، فما فطن إلى لعنته إلا عندما تكشفت له فى النهاية . ولهذا فإن أوديب يبدو لنا

شخصية تستدر دموعنا كلها رثاء عليه . إنه إنسان يمضى إلى شقائه عن جهل بما يمضى إليه ، وليس فى مقدوره أن يفعل غير ذلك . وتقوم المأساة هنا على صراع غير متكافىء ، بين إنسان معصوب العينين حتى النهاية ، وقدر عات جبار .

أما رئيس البنائين فهو شخصية لا تستدر الرثاء بقدر ما تثير الإعجاب ، ولم ينكص عن السير إلى حتفه بقدميه . لقد كان يستطيع أن يتراجع عندما عرف مطلب الشبح منه ، وأن يتخلى عن مشروعه لائذا بمستوى البشر العاديين . كان بمقدوره أن ينفض يديه من بناء جسر آرتا لينعم بحياة وادعة وارفة الظل فى حضن زوجته الوفية الجميلة ، وبجوار ابنه الحبيب . لقد كان رئيس البنائين شخصية منحت حق الاختيار ، وأتيح لها أن تقرر مصيرها . وهو فى هذا الصدد أشبه بأنتيجون ابنة أوديب وبطلة سوفوكليس . كان باستطاعة أنتيجون أن تختار الطاعة دون التمرد . كان بمقدورها أن تختار العريس النبيل والحياة الزوجية الهانئة دون الإصرار على دفن أخ تألب عليه الحاكم كريون .

لقد كانت أنتيجون مثل رئيس البنائين شخصية بصرت بمصيرها ؛ أما أوديب فما كان يستطيع شيئاً من ذلك . لقد حيل بينه وبين اختيار مصيره .

ويمكننا أن نضيف أن كلا من أنتيجون ورئيس البنائين أثبت شجاعته أمامنا ، فقد وضع سعادته فى كفه والهلاك فى كفة أخرى ، ورجح الثانية . أما أوديب فما نعرف ماذا كان يفعل لو عرف مصيره من أول الأمر . وإن كان سوفوكليس المؤلف يعوض ذلك فقد صور لنا أوديب على أنه شخصية لها ماضيها الناصع فى الإقدام والجسارة ، فقد سبق له أن واجه الوحش أبو الهول وهزمه .

لقد ارتكب أوديب فعلته ؛ وسلك سلوكه الكريه د ن إرادة منه .

فقد كانت إرادته الحقيقية على نقيض سلوكه . أو بعبارة أخرى كان أوديب فيما أتاه مسلوب الإرادة . ومن ثم لا تقع مسئولية ما أتاه على عاتقه ، لأن المسئولية تقتضى سلطان الإرادة وحرية الاختيار . أما رئيس البنائين فقد كان حراً أن يختار . كانت إرادته على بينة من أمرها . ولقد اختارت ما اختارته . ومن ثم كانت مسئولة تماماً عما أتته وسلكته .

إن مسرحية « جسر آرتا » مسرحية المسئولية الكاملة ، أما مسرحية أوديب فهى — فى نظرنا — مسرحية المسئولية المعدومة ، لأن الارادة فيها مسلوبة والبصيرة معصوبة . أما فى « الجسر » فرئيس البنائين قد بصر وخير ، وعليه تقع مغبة فعلته .

وترتبط الحرية ارتباطا وثيقا بفكرة الضرورة أو الجبرية . وقد كان الإغريق من أسبق الناس إلى صياغة التلاحم بين الحرية والضرورة فى فكرة القدر التى كانت محورا أساسيا للمأساة .

ولقد كانت الحرية عند « الرواقيين » انضواء تحت لواء الإرادة الكلية القادرة على كل شىء ، وذلك من خلال الاستيعاب العقلى لكنه الطبيعة . ومن ثم ليست الحرية فى النهاية ضد القدر بل هى مع القدر . إنها ليست ضد الضرورة بل هى الضرورة مفهومة حق الفهم .

اما « الابيقوريون » فقد ذهبوا — على عكس « الرواقيين » — إلى رفض حتمية القدر ، وتصوروا أن للنفس البشرية قدرة خاصة على أن تنعزل عن قوانين الآلهة ، وتأبى تقبل أى مصير مرسوم .

ويختلط فى مسرحية « جسر آرتا » مفهوما الرواقيين والأبيقوريين عن القدر ، فيتساءل رئيس البنائين فى لحظة من اللحظات عما إذا كان بدوره فى اختياره ما اختاره أداة لذلك القدر الذى جعل زوجته تختار التضحية

بنفسها . ويستدعى هذا الموقف الرواقى إلى الذهن قول الفيلسوف اسبينوزا إن النفس لاتنطوى على أية إرادة حرة ، بل هى مجبورة على أن تريد هذا أو ذاك بمقتضى علة هى أيضا مشروطة بعلة أخرى، وهذه العلة بدورها محدودة بعلة أخرى ، وهكذا إلى مالا نهاية، فكل ما يحدث فى الوجود يرجع إلى تلك العلة الأولى التى تحقق منذ الأزل كل شىء بكمال أسمى .

إذن ها هو رئيس البنائين فى لحظة يؤمن بالجبرية . وها هو يحاول أن يبرىء نفسه زاعما لنفسه أن الذى حدث ربما كان من فعل قوة مستقلة عن إرادته ، وما كان بإمكانه أن يحول دون وقوعه . ولكن هيهات أن ينجح فى إسقاط المسئولية عن كاهلة حتى أمام ضميره فهو — مع « الأبيقوريين » — يشعر فى قرارة نفسه شعورا لا يفنى بعدم الإقتناع ، إذ أن الاحساس بالحرية كامن فى أعماقه .

وإذا أردنا أن نمضى فى توسيع نظرتنا الرواقية إلى موقف رئيس البنائين فيمكننا أو نقول بانه عندما تتعارض الإرادة مع الرغبة فلا حرية إلا بالتغلب على الرغبة ، ومناوءة الأهواء ، لكن يجب هنا أن نتصور التعارض بين الإبقاء على حياة الحبيبة وتشييد الجسر على أنه تعارض بين إرادة ورغبة ، بين العقل والهوى ، أو — على حد قول الفيلسوف ليبنيتز — بين رغبة دنيا ورغبة عليا ، وأن يصور الاستئثار بالحبيبة على حساب المصلحة الاجتماعية المتمثلة فى بناء الجسر هوى او رغبة دنيا ، وأن يصور الإصرار على بناء الجسر ولو على جثة الحبيبة رغبة عليا ، صوتا من العقل وإرادة حق .

لا يعانى أوديب إلا بعد أن تقع الكارثة ، أما رئيس البنائين فيعانى معاناة الاختيار . ثم يعانى معاناة مابعد الاختيار ، أى يعانى نتائج اختياره ، فنرى فى « جسر آرتا » إنسانا فى صراعه مع تصرفه ؛ كيف يجب أن يكون ،

وما يجب أن يكون . ثم نراه فى صراعه مع ما نتج عن تصرفه ، فيتحمل مغبة انعكاساته عليه وعلى من حوله . إن معاناة أوديب قصيرة الأجل ، وتأتى فى النهاية تماما . أما عند رئيس البنائين فهى معاناة أكثر تعقيدا وأطول مدى ، وتزيح النقاب عن قدر اكبر من قيمة الإنسان ، عن شجاعته وكبريائه ، عن قدرته فى الاختيار وتحمل نتائج هذا الاختيار . إنه إذن قادر على أن يكون شيئا بذاته ولذاته مهما كان الدمار الذى يلحق به ، قادر على أن يدبر مصيره ويحدده ، لا أن يكون مجرد الموقع الذى تتنزل عليه النوازل .

عندما عاد الرسول إلى أوديب يحمل إليه من معبد دلفى رسالة محيرة تقول إن شيئا دنسا يقبع فى المملكة ولا بد أن يمحى ، أخذ أوديب يبحث عن ذلك الشيء ، دون أن يفطن أول الأمر إلى أن هذا الشيء فيه ، ولقد كان هذا حال رئيس البنائيين أيضا ، فقد كان ذلك الشيء فيه ، وهو طموحه ذاته .

ولعل من أصعب المواقف على رئيس البنائيين أن عرف أن انهدام جسر آرتا لايرجع إلى مواده ولا أدواته ولا رجاله ولا خصومه ولا التربة التى بنى عليها بل اليه هو ذاته . وهذا الموقف فى صعوبته توأم لموقف أوديب عندما اكتشف انه هو القاتل الذى يبحث عنه ليرفع عن المدينة ما حاط عليها من لعنة ودنس ، فهو الذى قتل أباه الملك لايوس وجوكستا الملكة هى أمه .

كما يذكرنا موقف رئيس البنائين أمام الشبح إلى حد بعيد بموقف اوديب من العراف الأعمى تريزياس الذى كان يعرف ولا يريد أن يبوح بمن هو أصل البلاء النازل على المدينة . فالشبح يعرف ما المطلوب حتى تزول

اللعنة ، ويقف جسر آرتا على قدميه . وهو لايبوح بما يعرف شأنه فى ذلك شأن تريزياس إلا بعد أن استفزه رئيس البنائين ، فقد راح يصيح فى الظلمات مناديا الخصم المجهول أن يظهر ويتفاهم . وعندما ظهر له الشبح فى خرائب الجسر مطالبا بثمن العمل الذى يريد أن يخلقه فى هذه الأرض قال له : أنت الذى خرجت باحثا وصائحا فى الليل .

وكم كنا نتمى أن يطيل ثيوتوكا فى مشهد رئيس البنائين مع الشبح ، فقد ابتسره المؤلف بينما كان يستطيع أن ينمي حوارهما بعض الشيء مثلما فعل سوفوكليس فى المشهد بين أوديب والكاهن تريزياس .

إن أوديب أمام كل الناس ملك مبجل مهاب ، لكن من هو فى الحقيقة ؟ مخلوق دنس . إنسان شقى بمصيره ، عندما سترفع الغشاوة عن عينيه ويرى نفسه على حقيقتها . مخلوق مكتوب عليه أن يتحطم عندما يصطدم بالقدر الذى يدبر المصائر والناس نيام ، والذى لا يفر منه حى مهما طلب الفرار .

وهذا شأن رئيس البنائين أيضا . هو بناء أريب قدير له أعمال شامخة تسبح بعبقريته وجبروته ، ولكنه لا يعرف أنه فى الواقع قاصر مكتف اليدين ، ووحش ضار كريه .

رئيس البنائين – مثل أوديب من قبل – مفتح العينين ولا يعرف مايخبئه المستقبل، بينما عازف العود الضرير يعرف كل ما فى الأغنية .

يعرف أوديب إذن الحقيقة التى أضناه البحث عنها ، وهو أنه قاتل أبيه ملك لايوس ، كذلك يعرف رئيس البنائين من الشبح الحقيقة القاصمة وهى أنه هو نفسه السبب فى انهيار الجسر المراد تشييده ، لكن ثمة فارقاً بين رئيس البنائين والملك أوديب فى هذا المقام ، فالذى يحطم أوديب هو الماضى ، بينما الذى يحطم رئيس البنائين هو المستقبل . إن أوديب لا يخاف

من المستقبل بل من الماضى ، أما رئيس البنائين فماضيه مشرف وحافل بجلائل الأعمال ، لكن مستقبله هو المحفوف بالمخاطر .

كان الإغريق يقدسون فكرة «مصلحة المدينة» على الدوام . ما الذى جعل رئيس البنائين يضحى براحة باله ، وهو الرجل الناجح المهاب الذى وهب زوجة وفية وولدا وجاها ، وحظى بكل ما يمكن أن يحلم به الرجل العادى . ما الذى جعله يترك البر الآمن ليلقى بنفسه فى خضم بحر متلاطم الأمواج ، ويركب موجة عاتية؟ ما الذى دفعه أن يترك نور النهار ليخرج إلى ظلمات الليل يصارع شياطين ومردة ؟

يجدر بنا أن نرجع هنا إلى نبعين أساسيين : الأول هو فكرة إغريقية تليدة منذ القرن الخامس قبل الميلاد هى الإحساس بقيمة المدينة وتوقيرها . والثانى : هو شخصية الإنسان وآفة الطموح . أعنى التعطش إلى تأكيد الذات تأكيدا عارما ، وزهو الحياة الذى يجعل الإنسان يعصف بقوانين الآلهة ونواميس البشر.

ولقد كان رئيس البنائين شخصية جمعت بين السعى إلى الوفاء بمصلحة المدينة ، بأن يحقق لبنى وطنه الجسر الذى طلب علية القوم منه أن يستخدم كل مهارته وخبرته فى إقامته ، وبين الطموح الذى يصل بصاحبه إلى التحدى والتحطم على صخرة المطلب الضخم .

وربما أمكننا أن نقول على ضوء فكرة «مصلحة المدينة» أن رئيس البنائين إنما فعل ما فعل تحت تأثير شعور عميق بالواجب ، وبأن هذا الجسر الذى عهد اليه أهل البلد بناءه يجب أن يتم خدمة لرفاقه البشر . فعل رئيس البنائين ما فعل إذن تحت تأثير الإحساس بأنه ملتزم ، ومن ثم اختار حرية أعلى مفضلا إياها على حرية أدنى . اختار القانون والصواب على الهوى

والنزوة العابرة ، مثبتا بذلك قدرة حقيقية على ضبط الذات ، وإحساسا جادا بالمسئولية .

لقد حققت إرادة رئيس البنائين ما كان غير ممكن أن يحدث لولاها . لقد تصور ذلك القائد الجسر فى مخيلته المبدعة ، وقدم للمستقبل بإرادته الفولاذية شيئا لم يكن له وجود من قبل ، فكانت حرية رئيس البنائين بذلك مصدر تجديد . كانت ثقته بحريته إيمانا بالتقدم ، وكانت مخاطرته استهتارا بالمستحيل ، فتحت أمام الشعب إمكان الانطلاق إلى مستقبل افضل :

التغيير والتقدم ممكنان إذن ، والمستقبل مفتوح على مصراعيه ليستقبل حركة الإرادة الحرة . ولقد شحذت الضرورة الخارجية ممثلة فى الشبح عزيمة رئيس البنائين الذى كان بطلا قام بدور فعال فى ظهور شيء جديد فى الوجود ، رغما عن كل القوى الخارجية المعوقة . وهكذا تبدو الحرية بذلا يقوم على أن المستقبل ليس مقفلا أصم بل هو حافل بالوعود التى تقتضى من الحاضر ارادات حرة مبدعة تتعدى على الدوام ما هى عليه بالفعل .

إن جسر آرتا إيمان بالتقدم ، وبأن المستحيل قابل – على حد قول الفيلسوف وليم جيمس – للمراجعة باستمرار ، وبأن المستقبل رغم كل العقبات والضرورات مفتوح أمام ذوى القرائح الخلاقة والجماجم الصلبة من أمثال رئيس البنائين .

لقد كشف رئيس البنائين باختياره فى سبيل «مصلحة المدينة» أو بعبارة أعم «الصالح الإنسانى» عن حقيقة ذاته . إنه فنان مبدع ، وككل فنان مبدع على استعداد أن يضحى بكل شيء حتى يرى عمله الخلاق فى النور والضياء ، وان يتحدى كل حتمية .

هناك كثيرون يعيشون ويموتون دون أن يعرفوا الحرية بهذا المعنى .

فهذه الحرية نادرة الوجود لأنها خلق وإبداع ، وقلائل من يقدر لهم أن يرقوا الى مرتبة الخلق والإبداع . الحرية بهذا المعنى تفنى فى نتاج خلقها ، وتجعل عملها هو الامتداد الوجوبى لروحها ووجودها . وهكذا تتحول الارادة الى وجود يتطور وينمو من خلال الحرية التى هى خلق وابتكار قبل كل شيء ، لانها اثبات لوجود الذات فى العالم الخارجى ، وامتداد للروح الى عالم المادة الذى تشكله على صورتها هى .

كان رئيس البنائين انسانا ناجحا لاحدود لطموحه . كان على الدوام قادرا على أن ينفذ ما يريد ، وأن ينطق الحجارة الصماء الصلبة بافكاره واحاسيسه . وكان يعرف كل دقائق عمله ، ويتقنه اتقانا ما بعده من اتقان . انه الفنان القائد العالم المخترع . ومن كان على هذا القدر من العبقرية والطموح يتعرض لآفة خطرة تردى بصاحبها فى التهلكة اذا استبدت به وتحكمت . اعنى الزهو والشعور بألا حدود لما يقدر عليه . وهذه الآفة تجعل الطموح بسبب طموحه ذاته مهددا بأن يتحطم ، وان ينتهى الى احلك مصير . وهذا التهديد لاياتيه من الخارج بقدر ماياتيه من الداخل. إنه كاليعسوب يلدغ ويموت . من الخارج ياتيه التحدى ، ومن الداخل تتدفق الرعونة والاستهانة بالخطر . من الخارج تأتيه المطالبة ، ومن الداخل يؤدى الثمن الباهظ الذى قد يصل الى حد القتل والتدمير والجريمة . وكان يحلو للآلهة عند الاغريق ان تلهو بامثال هؤلاء الطموحين ، ويروق لها ان تهدم النجاح الكبير ، وتدحرج من أعلى الجبل الصخرة التى شقى « زيزيف » فى حملها الى القمة .

أفى حادثة رئيس البنائين عظة وعبرة ؟ أجل. إن الكبرياء تلد الطغاة ، واذا ما تجاوزت الحد لاتلبث ان تنحدر بصاحبها الى هوة من الشقاء لامخرج

له منها . ان الذى يسترسل مع الكبرياء خليق ان يحيق به المكروه عقابا على جرأته الآثمة . لذلك عليك أيها الانسان بالتواضع حتى فى لحظات الانتصار . ليكن فخارك تبجيلا للآلهة ، واحتراما للقوانين المستتبة والإرددت الوديان اصداء صياحك عندما تسقط فى الهاوية .

لكن رئيس البنائين يستهين بالاخطار ، ويمضى فى طموحه الى منتهاه ، ويقبل ان يدفع الثمن الفادح مختارا . وهو هنا يبدو بطلا مأساويا يستدر الاشفاق والسخرية معا . انه معتز بعبقريته ، وهذه العبقرية هى سبب دماره ، فالقدر بالمرصاد للعبقرية وللعمل المتقن وللنجاح .

على ان الانسان هو الانسان ، لا يرضى أن يقبع خاملا فى سبيل راحته ، بل هو يطرح وراء ظهره كل غنم مضمون لكي يحقق ذاته وينتزع لرفاقه البشر شعلة النار المقدسة من الآلهة ، حتى لو كان جزاؤه ان يربط مثل بروميثوس على صخرة ، وتنهش النسور كبده . هذه عظمة الانسان ، فهو لا يكف عن الصراع ، وعلى استعداد ان يدفع على الدوام الثمن سواء عن اخفاقه او نجاحه .

وليس رئيس البنائين مثالا على طموح الانسان فحسب بل وعلى عجزه عن أن يكون أكثر مما هو . وتثير مأساة رئيس البنائين التأمل فى المركز الحقيقى للانسان فى الوجود ، وفى مدى فاعلية تحدى الانسان لامكانياته ، وتمرده على قصوره العقلى والجثمانى ، ومحاولة تعدى الحدود بالروح المتطاولة إلى أعتاب الروح الكلية . ان رئيس البنائين رمز للايمان بقدرة الانسان على تقرير مصيره بعبقريته واستخفافه بالصعاب . لقد حقق رئيس البنائين فى الماضى كل ماتاقت روحه اليه ، وها هو الآن امام جسر آرتا يضع نفسه

امام السؤال : هل هناك ما تعجز عنه ارادته ؟ ويمضي السؤال محيرا ممضا : من أنا ؟ ماهي امكاناتى وحدودى ؟ ما هو الثمن ؟ .

وتمر ماساة رئيس البنائين بمراحل خمسة : الأولى : قبل أن يواجه الشبح ويعرف ما هى التضحية المطلوبة منه . وهى هنا مأساة بحث واستجلاء . ثم تأتى المرحلة الثانية ، وهى تبدأ بالمواجهة . ويجب ان نلاحظ هنا الخطاب المباشر من رئيس البنائين الى الشبح . وقد كان رئيس البنائين مازال محتفظا بكامل كبريائه . ثم تسلمنا المواجهة الى لحظة التنوير والتحذير . وهى اللحظة التى تبلغ قمتها عندما يقول الشبح لرئيس البنائين «أنت حر» ثم تعقب لحظة التنوير لحظة المراوغة والمساومة . ثم تأتى المرحلة الثالثة وهى مرحلة الصراع الحقيق . وهو صراع مزدوج : فهو من ناحية اولى صراع بين البطل ونفسه ، ومن ناحية اخرى هو صراع بين البطل ومن حوله : بين البطل ومساعديه ، وبينه وبين امرأته . واذا كانت الزوجة تقبل عن طيب خاطر المضى الى التضحية من أجله ، الا ان هذا الاقبال والترحيب لا يخفف من وقع الصراع على رئيس البنائين ، بل يزيد عبأة ثقلا عليه ، وهو يصرح بذلك بنفسه . ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى مرحلة القرار ، التى تتسم بالسرعة فى التنفيذ خشية العدول والنكوص ، خشية التخاذل والتراجع . وبعد ان ينفذ القرار وتؤدى التضحية — كما ارادت الآلهة — تبدأ ردود الفعل عارمة شديدة . تمرد على رئيس البنائين أولئك الذين كانوا يستحثونه على اتخاذ القرار ، هبوا يلعنونه ، ويلقون عليه تبعة ما وقع . كما لعنته الأم العجوز لعنة عميقة الغور ، بعيدة المدى . ثم تتوالى النتائج . لقد وضع رئيس البنائين نفسه بفعله الجرىء خارج نطاق البشر . الجميع يخشونه ويتهيبونه ويتحاشونه . ورويدا رويدا انفض من حوله مساعدوه ورفاقه ، بل وافترق عنه ولده عندما

كبر وعرف اى قاس هو ابوه . ثم تزداد الهوة بينه وبين البشر كلما مضى الزمن ، وارخى على عملية بناء الجسر سدول النسيان ، حتى اضحى رئيس البنائين فى النهاية منبوذا يفر الشبان والشابات منه ـ فرارهم من شخص ملعون . ثم تأتى المرحلة الخامسة ، مرحلة هدوء العاصفة وفواتها . كل شيء كأنه لم يكن . وبعد العناء وسفك الدماء لابد من التطهير ، وهو ما يصل اليه رئيس البنائين بعد أن يحقق طموحه ، ويدفع الثمن غاليا . وعندما نصل الى مشهد التطهير فى أواخر المسرحية تتألق الروح الاغريقية من جديد ، ويضيء مزيج من تبجيل الانسان والتسليم بالقدر وايمان بان اللحظة المضيئة فى حياة البشر رغم كل التعاسة التى تحفل بها هى لحظة الشموخ والشجاعة وتحدى الخطر .

لعل من الممكن تعريف الحرية بانها اختيار المرء لما يأتيه عن تدبر وروية . وهذا يقتضى ان يكون امام المرء اكثر من سبيل يسلكه فينتقى منها سبيلا يكون له ألا ينتقيه أيضا . أى أن الحرية فى النهاية تصميم وعزم يدفع اليه مبرر عقلى أو باعث عاطفى أو الاثنان معا .

ولا انفصال بين الارادة والبواعث ، ولذلك كان اختيار رئيس البنائين عملية تغليب لباعث على اخر . ولكى نحكم على رئيس البنائين أوله يجب أن نقرر لأنفسنا بادىء ذى بدء ما اذا كان باعثه الذى قدر له الغلبة فى النهاية مجرد هوى من الاهواء ام باعثا نابعا من صميم وجوده . أو بعبارة أخرى هل كان رئيس البنائين يتصرف وفقا لنزوة أم وفقا لعقله . ذلك أن المرء لايكون حرا – على حد قول الفيلسوف ليبنيتز – الا بقدر ما تنزع إرادته بوازع من صوت العقل . وليس الاختيار الحر سوى الاختيار المعقول ، أى اختيار هدف خير استنبطه العقل . وليست الحرية باى حال

من الاحوال انحرافا بل هي تعال على الاهواء . لذلك توقفت سعة الحرية على مبلغ رجاحة العقل ودرجة الحكمة والفضيلة التي يرقى اليها المرء . هناك اذن درجات من البواعث . والبواعث العقلية اعلى واوجب بالاحترام من البواعث الجسدية . وكلما كان الباعث العقلي أكثر حكمة وفضيلة كان باعثا اقوى جديرا بان يتغلب على سائر البواعث . على انه مهما كان الامر فلا يجب ان نغفل ان البواعث ذاتية لان المرء هو الذي يضفي على بواعثه مالها من معنى بل ومن اهمية حسب تصوره لماهية الاخلاق .

كي نمضي بحريتنا يجب ان ندفع الثمن . الحرية اذن مشروطة ، فهي تقف عند الضرورات . وعلينا ان نغالب تلك الضرورات المعوقة ونذللها . ان رئيس البنائين قد مارس في المادة حريته ، واعمل في العالم الخارجي ارادته . وقد روض العالم المادي وجعله رهن بنانه . لكن ها هي ضرورات جديدة ومهولة تهب واقفة امامه ، تسد الطريق امام ارادته وتصدها عن المضي منطلقة في طريقها . وعندئذ تشحذ الحرية لتكسر العائق الذي اعترض سبيلها . واذ ذاك اما ان تبدو الارادة خائرة ساقطة ، واما ان تبدو فعالة مؤثرة . ومن ثم لا تكون الضرورة الا دليلا حيا على انتصار الحرية . والواقع ان انتصار الحريةعلى الضرورة يحتاج الى تضحيات . ولكن الضرورة والحرية والتضحية تكون في النهاية كلا انسانيا متماسكا ، لايمكن ان تفهم بدونه حقيقة الوجود ، ذلك الشريط المتتابع الذي لا يمكن استيعابه الا حال حركته . اننا لو وقفنا عند حد الحرية منعزلة لبدت لنا وعاء أجوف ، ولكن اذا قرعناها بالضرورة ، ولاحظنا التضحيات التي تبذل من حول ذلك الالتحام بين الضرورة والحرية لادركنا مدى متانة ذلك الوعاء ، ومبلغ اصالة معدنه . اننا اذا تصورنا الحرية على انها مجرد رفض للقسر الخارجي وتمرد عليه كان تصورنا قاصرا ، اذ أن الحرية في كمالها تبدو

عملية اختيار داخلي مبني على تفضيل بواعث ونوازع على اخرى . وهكذا لم تكن حرية رئيس البنائين مجرد اصطدام بين ارادته وحتمية خارجية فحسب ، بل تحولت بعد ذلك الى صراع اخلاقي اعتمل فى اعماقه ، ومزق ضميره واورثه القلق والهم فترة . ثم انتهى ذلك الصراع الذى هو فى الواقع – بسبب طابعه الاخلاقي – صراع بين القيم الى انتصار قيمة على أخرى ، كتب لها الغلبة فى الداخل ، وعلى هديها تبلور سلوك رئيس البنائين ، وانعكس على العالم الخارجي . ان معالجتنا للعالم الخارجي إنما يحكمها ناتج عملية تفضيل داخلي . وتتحول عملية التفضيل هذه الى صراع حقيقي بقدر اهمية النوازع والدوافع التي تكون موضوعا لعملية التفضيل المذكورة . وهو ما حدث فى اعماق رئيس البنائين فعلا ، فقد احتكت ارادته بالضرورة الخارجية التي هي بناء الجسر ، ثم بدأ فى اعماقه صراع شاق : هل يضحي بحبه ام يضحي بطموحه ؟ ولقد كان النزال مريرا نظرا لفداحة كل من التضحيتين وجسامة كل من دافع الحب ودافع الطموح . وكان الاختيار لازما حتى تظهر ارادته فى نطاق الوجود الخارجي . وهكذا كانت القيمة هي جوهر الواجب الأخلاقي والإلتزام الإنساني .

وقد كان بامكان رئيس البنائين ان يختار ما كان سيختاره اى فرد عادي لو كان فى مكانه ، فيتراجع عن مشروعه الكبير ، ويفضل ان يقبع الى جوار زوجته وابنه . لكن رئيس البنائين شخصية بطولية ، من صنف اوريست وانتيجون ، ينبذ الطريق السهل ويقبل على الطريق الوعر . وما أشد شبه رئيس البنائين فى هذا بالقبطان فى مسرحية اونيل «زيت الحيتان» الذى كان بدوره فى صراع بين ان يضحي بالصيد الوفير فى سبيل زوجته التي تستعطفه ان يرجع بالسفينة الى الشاطىء لأن الرحلة على وشك ان

تودى بعقلها ، وبين ان يضحى بزوجته ويورثها الجنون فى انتظار ذوبان الجليد لينطلق الى حيث الحيتان التى تخرج لصيدها كثيرة ، وذلك حتى لايقول له رفاقه القباطنة ها هو «القبطان كينى » قد عاد خاوى الوفاض فاشلا . لكن الفارق بين شخصيتى القبطان ورئيس البنائين يتمثل على الاخص فى الفكرة الموجهة ، فهذه الفكرة لدى رئيس البنائين مشروع عام اختلط فيه الحافز الفردى بالحاجة الاجتماعية ممثلة فى المصلحة المشتركة التى ستعود على الشعب من بنائه .

وقد يبدو رئيس البنائين فى نظر البعض انانيا اذ ضحى بروح بريئة محبة فى سبيل تحقيق طموحه . على ان الذى يستأهل الاعتبار هنا ان الزوجة بالنسبة لرئيس البنائين لم تكن تمثل متعة جسدية اساسا بل كانت له عزاء وسندا . ولنرجع فى ذلك الى أوصاف الزوجة التى تزخر بها المسرحية وهى فى مجموعها اوصاف روحية معنوية . ويمكننا ان نتصور مبلغ العذاب الذى عاناه رئيس البنائين وهو يقرر التضحية بامرأته عندما نسمعه يتوسل الى الشبح طالب الفداء : «انك بكلامك تمزق جسدى اربا اربا . اطلب منى أى شىء آخر . اطلب منى حياتى او صحتى . هل تريد عينى ، أيها الشبح ؟ ها أنا اعطيك عينى . » كم يحب رئيس البنائين زوجته ، كم هو مشدود اليها بوشائج الحب والألم ! وبقدر ماضحت الزوجة ضحى رئيس البنائين ، فقد ضحى بأعز الناس اليه ، وبأغلى شىء فى الوجود ، وعندما تعود روح الزوجة اليه فى المشهد الأخير جالبة العزاء والسكينة وراحة البال تقول له : « ايها الرجل الشريف ، ايها الرجل العادل ، الرجل الهالك ، أكبرنا تضحية والله هو انت ولست أنا » وكل هذا من شأنه أن يلطف من تصور المتصورين لانانية رئيس البنائين ، فلقد حكمت الضرورة وكان الصراع مريرا ،

وانتهى رئيس البنائين الى اختيار التقدم على السكينة ، والطموح الشرس على الحب الوديع .

قلنا أن مسرحية «جسر آرتا» هي فى الواقع مسرحية الحرية والضرورة . ويواجه ثيوتوكا مؤلف المسرحية فى بناء الجسر مشكلة اساسية من مشكلات الحرية ألا وهى «الحتمية الطبيعية» فقد ذهب كثير من مفكرى العلوم الى ان الكون تحكمه قوانين صارمة لا محل ازاءها لأية صدفة ولا أية حرية ، وإن الظواهر الكونية — ويمكن أن يندرج فيها ايضا ظواهر السلوك — ليس لها الا أن تختار الانصياع للقانون الحتمى .

لكن ثيوتوكا — مع احدث ما وصلت اليه ابحاث العلماء وفلاسفة العلوم — لا يسلم بميكانيكية العالم الطبيعى ، ويفسح فى تصور الكون لفكرة الاحتمالات ، مقررا ان مصير الوجود ليس محددا تحديدا قبليا لافكاك منه .

اذا كان الأمر أمر حتمية ميكانيكية صارمة فما كان ينهار الجسر الا فى المرة الأولى ، ولا فى المرة الثانية ، ولا فى المرة الثالثة . لقد بنى الجسر بناؤون مهرة ملكوا ناصية العلم والصنعة ، وعرفوا دقائق العمارة ، وازدادوا خبرة جيلا بعد جيل . رئيسهم يعرف مهنته خير المعرفة ، رسومه متقنة ، ومواده خالية من كل شائبة ، والارض التى يبنى عليها امتن أرض شقها بمعوله ، وحراسه أشداء ساهرون . كل شىء على خير ما يرام ، ومع ذلك ينهار الجسر المرة تلو المرة . ماذا يعنى ذلك ؟ لا شك انه يعنى ألاحتمية طبيعية ، فحتى حركة المادة الصماء تعرف الاحتمالات التى تفسح المجال لفاعلية الروح فى الطبيعة . ليس فى الطبيعة قوانين حتمية ، بل قوانين احتمالية . وفى هذا انتصار لقضية الحرية ، فلم يعد الانسان مكبلا فى تصوره

للوجود بحتمية متناهية ، بل يجب ان يثق بعلمية شعورنا الوجدانى بالحرية ، فان ثمة دورا فعالا يقوم به الضمير الانسانى فى خضم العالم المادى ، فى الطبيعة ذاتها حرية اختيار .

لقد تصدع جسر آرتا وانهار ، وما كان يتصدع او ينهار لو كانت قوانين المادة صارمة ، وكانت الحتمية هى الدستور الأعلى . وقد بدت من وراء خرائب الجسر الروح التى لها الكلمة الأولى والاخيرة فى أن يقوم البناء ويقف على قدميه . وبدت بذلك المادة مجرد أداة طيعة قد تعصى ان تطيع ارادة البشر ، لكنها تطيع فى النهاية ارادة علوية . وهكذا يسقط القناع ويبدو الوجود صراعا سافرا بين ارادة وارادة ، بين ارادة دنيا وارادة عليا ، بين ارادة بشر وارادة قدر ، بين جوبيتر الاله واوريست الانسان ، بين حرية وضرورة . والقدر الذى شغل مقاما كبيرا فى المسرح الاغريقى هو صورة من صور الضرورة .

وتثير العلاقة بين الشبح والجسر تساؤلا غامضا . فما وجه تحكم الشبح فى الجسر . كيف يؤثر كائن معنوى فى المادة ؟ كيف تلتقى الروح والمادة ؟ كيف يمكن للروح ان تجبر المادة على ان تطيع ؟ لا مفر ازاء هذه التساؤلات من أن ننتقل الى التسليم بان المادة والروح من معدن واحد ، وان اختلفا فى الدرجة ، فالطبيعة امتداد للروح بحيث يمكن ان نتوقع تلاقيا وتجاوبا بين الروح والمادة ، بين الشبح الغامض والجسر الحجرى.

رغم أن « جسر آرتا » قد استقيت من أغنية شعبية تحكى أحدوثة على قدر لا يستهان به من الغرابة ، فإن ثيوتوكا رأى أن هذه الأحدوثة فى الواقع نافذة عريضة على أخطر قضية أرقت البشر منذ أسلافه الأغريق ، ألا وهى قضية

الحرية والمسئولية . وقد صارت هذه القضية فى عصرنا الحاضر أكثر حدة وأشد بروزاً .

ولقد كتب ثيوتوكا « جسر آرتا » فى أعقاب « الذباب » لجان بول سارتر التى قدمت أول مرة بباريس فى يونيو ١٩٤٣ . ونلمح فى « الجسر » لمسات اصطبغت بتصور سارتر للحرية التى هى احدى قمم التصورات فى القرن العشرين للمشكلة التى أرقت رجال الفلسفة والمسرح منذ الاغريق .

يقول سارتر إن الحرية لعنة ، لكنها المصدر الوحيد لنبل الإنسان . ويعنى أن تكون حراً قبولك النفى والانعزال عن سائر البشر الخاضعين ، وان تحيا فى قلق . ولقد أحس رئيس البنائين ذلك ، عندما بدأت مشكلته تبدو ، فنراه يتوسل إلى سائر رفاقة البنائين أن يحبوه وألا ينفضوا عنه . هذا هو الإحساس بالقلق والسير إلى الإنعزال المصاحب للاختيار الذى هو عصب الحرية . على أن « الذباب » توضح لنا نقطة على جانب من الأهمية تجعلنا نراجع موقف رئيس البنائين ، ألا وهى هل يمكن أن يوجد معيار أخلاقى للحكم على اختيار رئيس البنائين الصارخ ، اختياره الجسر دون الزوجة ، اختياره الطموح على حياة أعز إنسان إليه ؟ وتجيب « الذباب » اجابة يمكن أن تعمق محاولة الحكم على اختيار رئيس البنائين ، فتقول « الذباب » إن الإنسان إنما يخلق قيمه الأخلاقية باختياره هو ، والقوانين الأخلاقية مبنية على قرارات الإنسان لا على نواميس ميتافيزيقية . القول بأن للإنسان حريته يعنى أن اختياره إنما ينبع من ذاته هو لا من أية قوة علوية أو خارجية ، وهو مسئول عن نتائجها .

وإذا كان الإله جوبتير فى « ذباب » سارتر يرفض الاعتراف للبشر ممثلا فى أوريست بحريتهم ، فإن الشبح يسلم لرئيس البنائين بالحرية ، بل يؤكد

أنه حر ، فى الاختيار بين الجسر وبين امرأته . وان كان حديث الشبح على أى حال ، يحمل الشك فى مقدرة الإنسان – هذا المخلوق الضعيف – على اختيار الطريق الشاق . وهنا يتأكد قول سارتر إن الحرية لعنة ، لكنها السبيل الوحيد لأن يكون الإنسان نبيلا .

هنا نحن نصل إلى سؤال جديد : هل عرف رئيس البنائين الندم بعد أن ماتت زوجته فى سبيل طموحه ؟ كلا ، لقد تعب وعانى ، وانفض عنه الناس جميعاً ، وخسر – على حد قوله – الجلد والعظام ، لكن لا نشم من كلامه أو مسلكه عقب حدوث الفعل أى ندم . حتى نهاية المسرحية ، حتى آخر كلمة يرثى بها ، لا أثر للندم . لماذا ؟ لأن الندم مستحيل وعبث ، فما من لحظة تمر من حياتنا قابلة للإعادة ، ربما ، لكن الأقوى فى الأمر هو أن رئيس البنائين لا يتمنى ان ما كان لم يكن ، ذلك لأنه لا يشعر قط بأنه قد سلك مسلكاً ينبذه العقل وتمجه الإرادة.

لا محل للندم إذن ، فإن أجبن القتلة – على حد قول ساتر – هو من يندم على جريمته . وإذا القينا نظرة على مستقبل رئيس البنائين بعد قراره الخطير لا نلمح ظلا من الندم . لقد تعذب وشقى وشرد ونبذ ، لكن الندم لم يعرف طريقه إلى مصيره . وهو فى ذلك أشبه بأوريست بطل « الذباب » .

وفى بداية المشهد الثالث يستبد القلق برئيس البنائين ، طالما أن عليه اجتياز تجربة الاختيار . والحق أن الحرية ذاتها هى التى تولد القلق الذى يمزق النفس عند الإقدام على الفعل . ورغم أن موجة القلق والجزع فيها نبل الإنسان ومعدنه الفريد كمخلوق يشعر بوجوب اتخاذ موقف من الوجود ، إلا أن الحرية ليست بالأمر الهين ، ولهذا فى لحظة ضعف وتخاذل نرى رئيس البنائين يلوذ بفكرة « الجبرية » لينجو بجلده من هول القلق النفسى المقترن بالإقدام على الاختيار .

ونرى رئيس البنائين يتوق إلى التخلي عن إنسانيته ليحيا حياة الأشياء فنراه يقول : « وددت أن أكون مثل حجارتي لا يتطرق إلى ذبول ولا تطولني شيخوخة .. » يحاول رئيس البنائين في هذه العبارة أن يكبت شعوره الحاد بالحرية حتى ينعم من خلال تقمص الجماد بالطمأنينة وَخلو البال . وإذا تم قول رئيس البنائين ذاك عن حنين دفين إلى وجود الأشياء ، فلأنه يلمح أن هذه الأشياء كائنة بالفعل ، لا تقع عليها مسئولية اختيار قيم وأهداف في حين أن حياته هو لا يمكن إلا أن تكون متقلبة تتذبذب باضطراد بين الوجود والعدم .

الزوجة :

مباركة زوجة رئيس البنائين . لقد صورها ثيوتوكا على صورة فريدة . الطهر والنقاء كله فيها . الوفاء لزوجها طابعها وتبجيله رائدها . تسهر على راحته ، وتفتديه بحياتها.

إنها تحب زوجها رئيس البنائين ، ولا ترى فيه إلا حبها له . وهي فخور به كل الفخر « فزوجها قد ولد ليصارع الصخور الصلبة ، ليبسط عليها سيطرته ، ويعمل فيهاصنعته ، ولا تتغير عاطفتها نحوه مهما تغير ، فهو لا زال في نظرها كماكان منذ البداية .

وإذا ما عاد زوجها الحبيب رئيس البنائين إلى البيت بعد عناء اليوم الطويل تستقبله برفق ومودة ، وتهون عليه همومه ومشاقه.

وهي لا تفرض عليه شخصيتها وتطالبه شيء . فهي لاتتدخل في شئونه إلا إذا كان بوسعها أن تفعل من أجله شيئاً . أما فيما عدا ذلك فهي بسيطة ساذجة ، لا تعني بأمر سوى زوجها وبيتها وولدها .

وقد أبرز ثيوتوكا في المشهد الثالث من المسرحية شخصية الزوجة خير ابراز .

لقد وهبت حياتها كلها لزوجها يفعل بها ما يريد . إذا كانت تستاهل شيئاً فليشد قبضته ويمسك بها ، وإلا فليلق بها إلى الرياح تذروها . إنها ترعى البيت والولد ، وتفكر فى رجلها فتحس بالسعادة ، ولا شيء أكثر من ذلك .

مباركة انت بين النساء ، يا من تبذلين نفسك من أجل زوجك دون أن تبغى لها شيئاً ، يا من تهونين على زوجك همومه واشجانه وتدخلين البهجة إلى قلبه بصفاء روحك ، وحلو لسانك . إنك لا تشعرين أى ثراء عريض جلبت على حياته ، وأية مكانة عظيمة احتللتها فيها ، أنت الهادئة الضعيفة المتواضعة .

استمعى أيتها المرأة الخيرة إلى ما يقوله عنك زوجك رئيس البنائين :
« ماذا كانت حياتى ستكون بدونك ، أيتها الزوجة التى تبخس حق نفسها ؟ كانت ستكون شيئاً مهلهلا ، جثة عارية ملقاة إلى الكلاب » .

لكن ، أيتها الزوجة الوفية إلى أى مدى يمكن أن يصل وفاؤك ؟ وإلى أى حد يمكن أن يبلغ تفانيك فى حب رجلك ؟ هل يصل بك حبك واخلاصك إلى أن تسيرى إلى حتفك طائعة مختارة فى سبيل زوجك ؟

أيتها المرأة البريئة الطاهرة ، هل ستنزلين حقاً إلى الحفرة العميقة تحت أعمدة الجسر الذى كتب عليه الانهيار ما لم تقدم ذبيحة لافتدائه ؟

« اربطونى .. اعطونى ضوءاً .. ساعدونى على النزول . »

ووطأت القاع .

وأمر رئيس البنائين . وبسرعة ، كما لو كان يطاردهم ألف شيطان ، سد العمال المهرة المجيدون الحفرة ، فى سبيل مشروعهم الكبير . أحضروا

الأدوات والجير والملاط . ودحرجوا الحجر ، ودقوا ، وأغلقوا الحفرة على المرأة بإحكام ، خشية أن تفلت منهم .

ورقدت الجميلة فى الحجر .

وإلى الأبد ، ستسند روحها دعائم عملهم ، هذا العظيم . وسيجعله جمالها مزهراً . وستبعث وداعتها فيه السكينة . وطيبتها ستضفى عليه الوداعة . . المرأة الوديعة ، الخاضعة ، البريئة ، تؤخذ غدرا ، وتدفن حية . على أنها اختارت التضحية من أجل سعادة زوجها ، حتى تزول عنه غمته ، ويعود الهدوء إلى قلبه ، والراحة إلى باله .

وما قيمة حياتها فى سبيل زوجها ؟

لترقد فى الحجر ، من أجل أن يحقق حبيبها ما كان يطمح إلى تحقيقه ، ولتذهب إلى جبال النسيان ، ووديان الصمت ، عن طيب خاطر ، مفعمة القلب بالحب ، بذرة تدفن فى التربة حتى تنبت شجرة طيبة الثمرة .

يحرص ثيوتوكا مرة أخرى على تأكيد أن الإنسان حر ، سواء أمام الآلهة أو أمام الشياطين ، فنراه يعود إلى إبراز هذا المعنى بالنسبة للزوجة التى تسير إلى حتفها ، مقرراً أنها اختارت ذلك الطريق . لقد بصرت بمصيرها وبالرغم من ذلك قبلته وارتضته . ولقد تأكد ذلك فى أكثر من موضع ، فنجد الرسول يفصح لها ما هو مطلوب منها ، ويوضح ما هو فى انتظارها . كان العدل يقضى بذلك حتى لا تساق المرأة الوفية الطاهرة التى حتفها كحمل غرير يساق إلى الذبح . ثم بعد أن ماتت الزوجة ودفنت فى عمائر الجسر نرى رئيس البنائين يقول للعجوز مبرراً مسلكه : ماذا أفعل لك ؟ لقد كانت على وفاق مع نفسها ومع ربها .

هذا ، وإننا إذا وضعنا الزوجة ورئيس البنائين وجها لوجه أمام الضرورة التى

خيمت على حياتهما ، ورأينا أن إرادة رئيس البنائين تمرد على الضرورة ، وإن إرادة الزوجة انصياع للضرورة ، فإننا نلمح نوعا من التقابل بين « الرواقية » و « الابيقورية » على ما سبق أن أوضحناه بشأنهما فيما سلف .

وربما كانت أكثر المآسي الإغريقية اقترابا في فكرتها من تضحية زوجة رئيس البنائين بنفسها في سبيل طموح زوجها بدافع من حبها له هي « مأساة إفيجينيا » التي كتبها يوروبيديس عام ٤٠٥ قبل الميلاد .

كانت « افيجينيا » ابنة « اغاميمنون » الملك والقائد العام لجيوش اليونان التي عبئت لتغزو طروادة انتقاماً من ابن ملكها « باريس » لاختطافه « هيليني » الجميلة زوجة شقيق « أغاميمنون » وهو « الملك مينيلاوس » . هب أمراء اليونان تحت امرة « أغاميمنون » من أجل الثأر لشرفهم . وعندما جهزت سفن اليونان ، ونشرت قلاعها تأهبا للإبحار إلى المعركة سكنت الرياح ، فبعث بالكاهن « كالخاس » إلى هيكل « الالهة آرتيميس » للابتهال والتضرع إليها لتنفخ في الرياح الخامدة . وما لبث أن عاد الكاهن حاملا شروط « ارتيميس » لتحريك الرياح . لقد طلبت ان يضحى على مذبحها بأجمل وأطهر عذراء في بلاد الإغريق ، وهي « افيجينيا » بنت « أغاميمنون » .

إن حكمة الآلهة أعلى من أن يدركها البشر الخاطئون بعقولهم القاصرة ، وجريهم وراء الأهواء والمنافع الدنسة . إلا أن طلب « أرتيميس » جعل « أغاميمنون » القوى الذى بلغ من اعتزازه بنفسه وسطوته أن قتل ذات يوم ظبي « ارتيميس » المفضل — جعل ذلك الطلب « أغاميمنون » بين نارين : أن يضحى بابنته العزيزة « إفيجينيا » أو يفقد شرفه ، وينكص عن واجبه فتلحق الهزيمة والعار ببلده كلها . حقاً ، إن « الملك أغاميمنون » — مثل رئيس البنائين — ما كان يتوقع أن يأتى يوماً كهذا قط ، هل يختار الجبروت وقسوة

القلب فيرى ابنته الحبيبة تذبح فى معبد ارتيميس ، أم يختار الإشفاق والضعف فيفض الحرب لمجرد الإبقاء على حياة ابنته . ؟

جاءت « افيجينيا » من « ارجوس » حيث كانت تقيم مع أمها « كليتمنسترا » بناء على دعوة من أبيها على زعم إنها ستزف إلى البطل المغوار « أخيلياس » لكن الفتاة البريئة لا تجد الجو الذى فى استقبالها جو عرس وفرح . فها هم الأمراء والقادة ينتظرون قدومها كما انتظر البناؤن والمساعدون زوجة رئيس البنائين لدفنها فى أساسات الجسر .

إن « افيجينيا » تحب أباها حبا جما وتدرك أن التضحية المطلوبة منه إنما هى أداة لواجبه ، فلم تخذله ، ووضعت عنقها فى شجاعة على مذبح ارتيميس ليطيح به كاهنها الأكبر فتنطلق الرياح من عقالها وتمضى هى فى موكب العذارى الذى يتبع الآلهة « ارتيمس » فى رحلاتها المقدسة .

إن « افيجينيا » و « زوجة رئيس البنائين » و « جان دارك » و « عروس النيل » صنف من البطلات يدفعهن الحب إلى أن يصرن كالبذرة تلقى فى الأرض فتنبت الشجرة الخضراء وارفة الظلال .

إنما « زوجة رئيس البنائين » فداء تحول إلى خلود ، قربان قدم على مذبح الحب ، ورمز عميق للخصب والنماء ، ونسمة نقية هبت فى جو ملبد بالأطماع والشراسة ، واللهفة الدامية إلى الانتصار مهما كان الثمن .

مساعد رئيس البنائين ، وبناؤوه ، والحارسان :

انهار جسر آرتا للمرة الثالثة فى مدى شهر . يهيم البناؤون ليلة الحادث فى الظلام من درب إلى درب مثل اللعنة المعتمة متعانقين ، وقد خيمت عليهم التعاسة . تبا لكدهم والخسران على عملهم . الأيام الطوال

يبنون ، وبالليل يهدم ما بنوه . خمسة وأربعون بناء ، ومن الصبيان ستون ، يبنون على نهر آرتا جسرا . طيلة الأيام يبنون ، ثم يمسى بالليل منهاراً .

وفى المشهد الرابع من المسرحية يبدو البناؤون جماعة تستحث رئيسها على أن يتخذ قراره الوحشى . ويلعب الخوف والقصور دوراً هاماً فى تحويل الجمع إلى كائن جماعى قادر على إتيان أفعال من العنف والوحشية ، قد تكون غريبة عن كل فرد من الأفراد المكونين للحشد ، ولا يقدم على إتيانها لو كان وحده غير منضم إلى هذا الحشد المنطلق فى طريق خاص به . ويصرخ رئيس البنائين فى مساعده : السنا وحوشا كواسر ؟ أنظر إلينا جيداً ، وإلى نفسك أيضاً ، لو استطعت أن تجد مرآة . ماذا ترى سوى قطيع من الوحوش الضارية جمع بينها تعطش مظلم إلى الدماء ، وإذا شمت رائحة الصيد قبعت مترقبة متحفزة . دعك إذن من الخجل ، ولنكف عن إخفاء وجهنا الحقيقى !

كلا ، إنهم ليسوا كذلك ، ورئيس البنائين إنما يتكلم مثل مريض أو طفل غرير . إنهم صناع شرفاء عاملون ومقدرون للتبعة ، بهم شغف إلى عملهم ، ويتوقون إلى انجازه ليخلصوا من اللهفة التى تعذبهم . إنهم سيقدمون التضحية المطلوبة منهم . إنها ضرورة ، حاجة ملجئة ، إنها لعنة ينحنون ويرضخون لها ، وليست مهمتهم أن يتصارعوا مع الشياطين ، بل أن يبنوا حجراً فوق حجر بإيمان ورجولة وشجاعة .

وتجىء الزوجة إلى عمائر الجسر ملبية دعوة رئيس البنائين العاجلة ، فتجد البنائين قد علاهم الصمت والوجوم .

ويشفق عليها مساعد رئيس البنائين ، فيحاول أن يخفف عليها تأثير الكارثة التى ستحل بها ، فيروى لها قصة من نسج خياله عن أن خاتم زواجها قد وقع من يد رئيس البنائين فى حفرة عميقة تحت الصف الأول من أعمدة الجسر ،

وأن البنائين قام فى روعهم أن هذا نذير شؤم ، وأنه لكى ينفض السحر لابد أن تنزل هى.

وتنزل الزوجة عن طيب خاطر . وتتعلق الأنظار والقلوب بشفتى رئيس البنائين فى انتظار القرار الحاسم . الجموع فى حاجة إلى كلمة إيذان من القائد ، كى تتحرك فهى لا تستغنى عن القائد الصارم الذى يعرف كيف يصدر أوامره . يهيب الجمع برئيس البنائين على لسان مساعده أن أشفق علينا . أحكمنا ، ولا تتركنا نهبا للضياع ، تتقاذفنا الرياح ويمزقنا التردد . انطق بكلمتك .

ورئيس البنائين عليم برعيته . يعرف أنه إذا انصرفت الضحية سيجرون بعد قليل مثل المجانين ليعودوابها . ما من مفر . وهو إذا تخاذل وتراجع ستسقط هيبته وتمرغ فى الأوحال . لو أفلت منه الزمام مرة لكبا الجواد ، ولالقى راكبه أرضاً . لقد وضعوا الحبل فى يد رئيسهم وأسلموا أمرهم لإشارته ، ليشفق عليهم من مرارة الانتظار ، ليتحمل هو كل المسئولية وليتصرف .

فتيان ملتهبون هم هؤلاء العمال المساكين ، متوحشون وأبرياء ، أما القائد والزعيم رئيس البنائين فهو رجل المصائب ، فقد فكر وقرر ثم أمر . وهو المسئول عن القرارات والأوامر ، أما الجموع فهى رهن الإشارة تنفذ ما تؤمر به بدافع من الثقة العمياء والتفانى.

ما هو أساس الخضوع لمن يتولون مقاليد الأمور ؟ الإجابة الشافية لهذا التساؤل أن الخضوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد فى صلاحية أولياء الأمور للقيام بشئون الجماعة.

وإذا كانت الكفاية والصلاحية هى السند الذى يسند سلطة الأمر والنهى ، فإن الخضوع يستمر باستمرار قيام ذلك الاعتقاد أو تلك الثقة ، وبالتالى كان على من يخضع لأمره على أن يعمل على أن يستمر ذلك الاعتقاد لدى جمهوره . ومن

ثم أن تستمر صلاحيته وكفايته . وهكذا يمكننا القول بأن الخضوع لرئيس البنائين يقوم على اعتقاد البنائين فى صلاحيته لتحقيق مطلبهم .

قد تكون لرئيس البنائين أطماع شخصية ، لكن كى يحمل جموع بنائيه وصبيانه على الانضواء تحت لوائه والسير معه نحو تحقيق مآربه كان عليه أن يصور لهم هدفه على أنه ذو أبعاد أعم من مجرد مقصده الخاص ، وأن يقرن هدفه بهدف رعيته . وهكذا يكون ما يتحقق فى النهاية ذو بعدين : بعد أول هو مطمح رئيس البنائين الذى تحقق ، وبعد ثان هو مطمح أتباعه الذى أضحى حقيقة ملموسة بدوره . ها هو رئيس البنائين عندما يهيب بالبنائين أن يتخلوا عن تخاذلهم وتراجعهم يقول : «فى سبيل مشروعنا الكبير .. تجلدوا .. تحمسوا .. هيا ، يا رجالى .» وهم يقولون : «تعالوا بنا لنخلص .. لنتحرر .. لنعد بشراً من جديد . »

نظرة شاملة إلى التاريخ تكشف لنا عن أنه ينطوى على قسط كبير من الجهد الدائب نحو تحقيق أطماع شخصية وأهداف مشتركة ، حركة مطردة من الزلات والتضحيات الجسيمة . لكن الأمر الذى يجب ألا يغيب عن الحسبان هو أن العدد وحده لا يكفى . فالعبرة بالفكرة الموجهة ، وبالعزيمة التى تلم الشمل حولها ، وتدفع بالجمع قدماً إلى تحقيق تلك الفكرة الخلاقة . لهذا لو لم يكن رئيس البنائين قد أعمل عزيمته الماضية لما حققت جموع البنائين والصبيان الفكرة الموجهة ، ولما بنى جسر آرتا وشمخ فى ضوء الشمس جباراً عالياً مفيداً. على أنه لو لم تقم الفكرة الموجهة ، الفكرة الجذابة المتسلطة على الوجدان والإرادة لما كان لرئيس البنائين شأن . وهكذا يبين الترابط بين إرادة رئيس البنائين وفكرة الجسر التى تسلطت على ذهنه ، وأرقت باله ، وألهبت حواسه ، وقادته كما قاد بدوره مساعديه وصبيانه.

لقدجبلت الطبيعة الإنسانية على عدم خضوع الإرادة لإرادة أخرى خضوعاً غير مكره إلا إذا كانت تلك الإرادة الأخرى تمثل قيمة عليا . وعندئذ يكون فى الخضوع عزاء مرده أن الخضوع لن يكون موجها إلى إرادة ذاتية ، بل إلى إرادة تؤدى مهمتها ، أى لرجل وإن كان كالآخرين إلا أنه يتقلد سلطة تدعوه إلى أن يأمر ، كما تدعو الغير إلى أن يأتمروا . وبعبارة أخرى إن واجب الرعية فى الطاعة لا يتصور إلا متى فهم الأمر الصادر على أنه ترجمة لالتزام أعلى . ومن هنا نفهم أساس خضوع البنائين لرئيسهم من خلال الفكرة الموجهة . فها هو رئيس البنائين فى المشهد الرابع من المسرحية يجرى هنا وهناك بين بنائيه مشجعاً : هيا .. عمل .. حرية .. انتبهوا جيداً .. فى سبيل مشروعنا الكبير .

إن الاعتراف للرضاء بدور الإقرار والتصديق جائز ومقبول ، أما أن ننتظر منه أن يخلق فإن ذلك مغامرة لا يؤمن عواقبها ، وتضحية بصفة المبادءة اللازمة . إن رئيس البنائين يمسك بالزمام ، وبين يديه سلطة المبادءة . وهو يعرف كيف يأمر وكيف يقود وكيف يحكم ، وكيف يلم شمل جنوده حتى لا يتفرقوا فتتبدد جهودهم . ولقد قادهم فى معركة جبارة ضد الشيطان ، وانتزع منه قلعة منيعة هى جسر آرتا ، شأنه فى ذلك شأن بروميثوس الذى انتزع لشعبه شعلة النار المقدسة من الآلهة . ولقد كان الثمن الذى دفعه رئيس البنائين غالياً ، فضرب بذلك لأعوانه المثل الصالح ، وكان قدوة احتذوها . كان البناؤون همهم هين ، فالضحية لم تكن منهم ، أما رئيس البنائين فتضحيته كبيرة ومأساته مهولة .

لكن الشك ما يلبث أن يدب بين الصفوف . كيف حدث هذا الذى حدث ؟ لماذا هذه الخطيئة ، هذه الكارثة الكبيرة ؟ وما يلبث أن يستقر فى روع البنائين أنهم ضللوا واقتيدوا إلى الشر فقتلوا نفساً بريئة ، فيغلى السخط فى

قلوبهم ، و تمردون ، وينقسمون ، ويتضاربون . ولنسمعهم يتصايحون منفسين عما فى أعماقهم من ألم وخزى ورعب : « من كان السبب فى هذا الذنب ؟ من الذى بدأ ؟ من الذى أعمى بصائرنا ؟ كان الأمر خدعة وإفكا وجبنا . لستم رجالا . أنتم فاسقون .. تهابون .. رعاع أدنياء .. تستأهلون الرثاء .. كلنا .. كلنا ضائعون ينخر فينا السوس .. كلنا مخابيل . لماذا ؟ لماذا ؟ »

وينادى البناؤون فى غمرة غضبهم المشوب بعارهم بسقوط المشروع الذى خرجوا من أجله ، وبسقوط رئيس البنائين تلميذ الشيطان الذى أعماهم ، الخائن الذى سحرهم ، الذى جلب عليهم اللعنة .

لكن رئيس البنائين القائد المحنك مايلبث أن يلم شعث بنائيه ، ويسترد سيطرته عليهم ، فيذكرهم بأنهم قد ذرعوا اليونان معاً خطوة خطوة ، وصارعوا الحجر سوياً بعشق وألم ، وأقاموا القلاع والقصور والأبراج العالية تطاول السموات الزرقاء . ويطلب الرئيس من بنائيه أن يكون الشعب وحده موضع اعتبارهم ، فهو يكن لهم الاحترام،ويضع ثقته فيهم ، وينتظر بلهفة مشروعهم الجديد الذى وعدوه به ، أعظم مشروعاتهم قاطبة . إن أرواحهم تنتظره بلهفة هى أيضاً ، وإذا لم تشهده شامخاً يلمع فى ضياء الشمس كالذهب فإنها لن تنجو من العاصفة الهوجاء التى تكتسحها . ويهيب رئيس البنائين برجاله أن يفيقوا ، ويعدهم ويطمئنهم بأنه لن يبتعد من جانبهم حتى يوصلهم إلى مرفأ الخلاص . وليطردوه بعد ذلك ، ولينبذوه ويهجروه . أما الآن ، فى ساعة المعركة فإنه يصيح فيهم إلى الإمام .

ها هو القائد الذى يجمع رجاله حول الفكرة الموجهة ، ويبدد من قلوبهم اليأس ، ويطرد عنها جحافل الخوف ، وينير لهم الطريق ملهباً حماستهم على الإقدام ، وينتهى به المطاف إلى النصر ، رغم كل الصعاب .

وبعد أن تم المشروع الجليل الذى بذلت فى سبيله كل تلك التضحيات ، تفرق الشمل ، وانفض الرجال من حول رئيسهم ، وتنكروا لقيادته ، وتحاشوه كما لو كان موبوءاً ، فلقد وضع رئيس البنائين نفسه بعمله البطولى خارج دائرة البشر الذين ما أن يروه حتى يتذكرون بجازفته الخارقة فترتعد قلوبهم ويلوذون بالفرار .

إن جموع البنائين تحتاج من مخرج المسرحية إلى مهارة ودربة فى تحريكها لابراز تلك المعانى التى تتضمنها المحاورات بينها وبين قائدها وزعيمها رئيس البنائين ، وعلى الأخص فى لحظة تمرد البنائين عليه وتخبطهم فيما بينهم محاولين تبرئة أنفسهم من دم الضحية التى نزلت البئر دون ممانعة من جانبهم بل وبتشجيعهم وتضليلهم ، ثم استرداد رئيس البنائين زمام الموقف وسيطرته عليه . إنها مخلوقات شرسة ضارية ، ضعيفة لا حول لها ، فى حاجة إلى أن تقاد وتساس ويكبح جماحها .

الأم العجوز :

نظرات الأم العجوز تتغشاها سحابة معتمة مفعمة بالقلق ، كما لو كانت رؤيتها لابنتها زوجة رئيس البنائين تملؤها خوفاً ، ولكأن ابنتها مصابة بمرض عضال .

وكيف لا وابنتها من لحمها ودمها ، فإذا ما أحست ظلا أسود يخيم على فلذة كبدها تسرى الرعدة فى أعماقها وتتسرب إلى عظامها ، كما لو كان الظل يتغشاها هى ؟

ما هذا الظل الذى يتغشى ابنتها الحبيبة ؟ فى الأفق كارثة تهدد سعادتها ، والعجوز ترى مالاتراه ابنتها ، فإن زوجها قد أضحت نظرته صلبة ، وأمسى وجهه جامداً كأنه قد من صخر ، وصار شأنه شأن الحجارة التى يعمل فيها . كل

ما فيه من روح وحياة تجمدت ، والإبنة تحب زوجها ولاترى فيه إلا حبها له ، والحب لا يدعها تبصر التغيير الذى تسرب إلى روحه .

لقد عاشت العجوز مع أجيال مختلفة من الرجال : أبوها وإخوتها وزوجها. وهى تعرفهم حق المعرفة . عندما تتحجر نظراتهم وتنضح بالبرود ، وتروح أرواحهم بعيداً خارج عالمنا المستكين ، وتختلط فيها المرارة بالحلاوة والعذوبة، وعندما يشقون كما لو كان قد دقت فى يديهم ورجليهم المسامير ، ويتخبطون فى خضم أحلام مهولة وخرافات وشياطين وأبخرة ، وعندما يعجزون عن الوصول إلى ما هو بعيد المنال ، وأن يتحرروا مما هم فيه ليعودوا الينا نحن مخلوقات الأرض ، عندئذ حذارى ، إنهم يصبحون قساة .

لقد رأت العجوز ببصيرتها ما تخبئه الأيام ، وقرأت الغيب . استشعرت بفطنتها التى دربتها السنين ، وبعاطفة الأمومة التى تجيش فى صدرها ما ينتظر ابنتها وزوجها . لاتعرف العجوز بالضبط ماذا سيحدث ، لكنها تحس بأن ثمة نائبة من النوائب ستحل بالبيت فتهدمه ، وتحيق بسعادة ابنتها فتزلزلها زلزالا .

إن الغيوم تتجمع وتنذر بشؤم كبير . ولقد سمعت الأم المسكينة خطوات الموت يدب فى البيت . هى عجوز تعرفه ويعرفها ، لكنها ليست قادرة على أن تسدى عوناً ، مهما كان المصاب . فليتولى الله الأمر بحكمته وعدله ورحمته.

وهى لما تتوجسه تخشى رئيس البنائين زوج ابنتها . وهو يشعر ذلك من نبرات صوتها .

فالعجوز تبدأ دورها مع بداية المسرحية ، وتمهد للعاصفة التى ستعصف ، وتنذر بالكارثة التى ستقع .

ثم تعود العجوز إلى الظهور فى المشهد الرابع من المسرحية بعد أن ضحى

رئيس البنائين بابنتها فى سبيل تحقيق أطماعه الجائرة ــ تعود لتشهر إصبع الاتهام وتطلق صرخة الأسى . ابنتها ، سويداء قلبها راحت ضحية الطموح والكبرياء . ابنتها الرائعة الجمال دفنت فى الحجر . الطريق الذى مرت به لم تعد منه ، وراحت إلى جبال النسيان وبئر العدم . اتخذت من الأرض فراشاً وبالصخر تغطت ليقوم جسر آرتا .

يقول البناؤون دفاعاً إن للضرورة أحكاماً ، وكانوا هم أدواتها . ويقول رئيس البنائين تبريراً أنه هم أن يوقف ابنتها ويصدها فقالت أنها تفاهمت مع ربها ، لكن العجوز تصرخ قائلة : أيها الناس المظلمون ، هل يمكن أن يكون ذلك تبريراً أو دفاعاً ؟ أيها المخادعون القساة البغاة هل يمكن أن يكون ذلك عزاء لقلب أم كليمة ؟ أريد ابنتى ، واللعنة على المدينة وعلى جسركم . ليرتجف كلما ارتجف قلبى العجوز .

ثم يأتى الغفران . أولئك العمال المساكين إنما أعمتهم شهوة جامحة هى ضرورة عملهم الشاق ، فاغلقوا على الابنة الحجر منقادين لأمر أعلى من إرادتهم ، فليغفر لهم . أما رئيس البنائين فهل من السهل أن تغفر العجوز له مافعله بابنتها ؟ هل من السهل أن تصفح عمن سدد الطعنة إلى قلبها ، وثكلها فى أعز مخلوق لديها ؟

وتذكرنا الأم العجوز فى « جسر آرتا » بموريا المرأة العجوز التى اختطف البحر أولادها واحداً تلو الآخر فى مسرحية « الميممون صوب البحر » للكاتب الايرلندى جون ميلينجتون سينج . فتلك العجوز تقول فى ختام المسرحية : « التأم شملهم هذه المرة ، وأقبلت النهاية ، فليتغمد الله القدير برحمته روح بارتلى ، وروح مايكيل ، وأرواح شياموس وباتس وستيفين وشون ، وليتغمد روحى بالرحمة يا نورا ، وروح كل إنسان على قيد الحياة فى هذا العالم »

لقد دفن ما يكيل على ما يرام فى الشمال بنعمة الله القدير ، وسيعمل لبارتلى تابوت جيد من الألواح البيضاء ، وقبر عميق ، بكل تأكيد . فماذا باستطاعتنا أن نريد أكثر من ذلك ؟ ما من امرىء يحيا إلى الأبد ، ويجب أن نرضى » .

على الرغم من اختلاف الموضوع فى مسرحيتى « جسر آرتا » و « الميممون صوب البحر » إلا أن الجو النفسى الذى تحققه كلمات كل من العجوزين واحد . لقد وقع ما وقع ، وراحت ضحية أرواح عزيزة ، لكن ماذا بالإمكان غير أن ندفن أحباءنا ونرضى ، وليغفر الله لكل من بقى على قيد الحياة فى هذا العالم .

إنه الموقف التليد أمام القدر ، أمام الغول الذى يخطف الأحباء دون أن نقوى على شىء إزاءه . سنصيح ونصرخ ، وتصعد آهاتنا إلى أجواز الفضاء ، سنبكى وناطم الخدود ، ونصب اللعنات على من كان السبب ، لكن عندما يفتر الألم ، وتبح الحناجر ، وتجف الدموع فى المآقى ، ماذا يبقى ؟ لاشىء سوى الغفران والسلوى .

عازف العود :

وكما كان العراف « تيرزياس » فى مسرحية « أوديب » ضريراً لكنه كان يعلم وحده بلعنة أوديب ، بما حدث له وبما سيحل به ، كذلك عازف العود فى « جسر آرتا » عجوز ضرير ، لايعرف الحاضر قدر رؤيته للغيب . إنه يعزف على عوده وينظر إلى بعيد ، إلى الفضاء المفعم بالرؤى والخيالات ، بالنذر والذكريات . من يرى عماه يستهين بقدرته على الإبصار ، بينما هو مطلع على الغيب ، يرى مأساة الجسر بأسرها ، ومصائر من أحاطوا به وارتبطت حياتهم بدعائمه . إنه يرى الأطماع والآمال ، والحب والتضحية ، والعمل المنجز ، والكفاية الفائقة والإخفاق الذريع .

وتصاحب أغنية العازف الضرير خطوات المسرحية مصاحبة الصديق للصديق ، بحيث تعتبر كلماتها أصداء مباشرة أو غير مباشرة لمفهوم الحركة الدرامية وأعماقها . إنها الروح النابضة وراء الأحداث .

وتبلغ الأغنية قمتها عندما يفتر الحدث قرب نهاية المسرحية ، فنجد سطورها تمتد معبرة عن الانطباع العميق الذى يحدثه استشهاد الزوجة الوفية على يد زوجها ليقف الجسر على قدميه ، ولنسمع الأغنية تقول فى هذا المقام : « ألبسيني ثياب العرس ، فإنى أتركك . وداعا . وعندما يجيئك البناء لا تحزنيه . أبسطى له المائدة ليتغذى ويتعشى . وأخرجى خاتم الزفاف وهداياه ، وأعطيها للبناء ليخطب غيرى ، طالما أنى سأتزوج بدورى ، وأتخذ الموت قريناً » لنرهف السمع إلى النغمة الحزينة التى تتردد أصداؤها فى هذه السطور ، ولتتبين كيف تضمنت مفهوم موقف الزوجة . لقد غفرت لقاتلها ، وصفح قلبها المحب عمن دفنها حية من أجل طموحه .

والأغنية تعرف كل شىء . الأغنية كانت هناك وهى الآن فى كل مكان وعلى كل لسان . ليست الأغانى الشعبية والحواديت والأمثال مجرد كلمات تروى أو تنشر بل هى فى الواقع نبع لحكمة لاتنضب ، وتحتوى على حقائق تتناقلها الأزمان . وإن غابت ، من الأذهان الحكمة الكامنة فى أعماق الأغانى والحكايات والأمثال فليس الذنب ذنبها ، بل هو ذنب عالم مخبول مرتبج الصواب ، أعمته الحركة الجنونية التى تمضى عليها حياته بلا أناة أو روية . أيها الرجل الحكيم تشبث بأى ثمن ، وعلى الرغم من كل شىء بالجمال الذى يولى فى كل خطوة من خطوات الزمن . أبق نافذتك مفتوحة على مصراعيها لتطل على الرؤى التى تبدو أكثر جلاء عندما تغمض عينيك . والأغنية الشعبية البسيطة الساذجة حديقة يلتقى فيها الخيال بالحقيقة ، وتتردد فى كلماتها أصداء المجهول من أغوار سحيقة .

تتشابك مسرحية ثيوتوكا بكلمات الأغنية الشعبية ، وتجسم معانيها . وفى الوقت ذاته تنساب سطور الأغنية فى انسجام مع حوار المسرحية . وكما تتجاوب الأوركسترا فى الكونشيرتو مع الآلة المنفردة ، كذلك تتجاوب المسرحية مع الأغنية . وإذا كان للأغنية الفضل فى الأيحاء ببناء المسرحية فإن المسرحية تعمق من مفهوم الأغنية ، وتجلوها ، فيبدو معدنها الأصيل ، وإنسانيتها العميقة . وربما ما وصل مستمع الأغنية إلى كل جوانبها ، وماسبر أغوارها البعيدة إلا بفضل المسرحية التى أحالت الأغنية العادية إلى صرح درامى وطيد . وفرق أن تستمع إلى نغمة خام ساذجة وبين أن تستمع إلى هذه النغمة ذاتها وقد تناولتها يد موسيقى ملهم ، فاجرى عليها التنويعات العديدة ، وأقام عليها عملا كلاسيكياً لا يفنى .

وكما أنه لا جدوى أن يثور التساؤل حول ما إذا كان « أوديب الملك » مجرد أسطورة — إذ أنها صعبة التصديق بحرفيتها بل وقد تحمل على السخرية منها — كذلك فإن « جسر آرتا » صعبة التصديق كحادثة تاريخية ، لكن الأمر المؤكد أن ثيوتوكا مثل سوفوكليس لم يكترث بلا معقولية الحدث فى حد ذاته بل وجد فيه إطاراً صالحاً ليفرغ فيه وجهة نظره إلى الإنسان والقدر .

ولقد فطن سوفوكليس إلى الإيقاع المأساوى فى أسطورة أوديب كما فطن ثيوتوكا إلى الرنة المأساوية فى الأغنية الشعبية التى قد لا يلتفت عامة المتغنين بها إلى ما فيها من ترجمة للوضع الإنسانى بأسره .

لقد صارت الأغنية على يدى ثيوتوكا تفسيراً للحياة الإنسانية . ولهذا نراه لم يلتزم بالأغنية الشعبية بكل حذافيرها ، وذلك حتى يصل إلى تنمية معناها الجوهرى ، وتوسيع أبعاده ، فقد اكتشف ثيوتوكا الهدف الأصلى من الأغنية ، كما اكتشف سوفوكليس الهدف الأصلى من أسطورة أوديب ؛ إنه الإيحاء بالرمز الكبير .

وذلك الرمز يبدأ من عنوان الأغنية ذاتها . لماذا اختار رئيس البنائين أن يبنى جسراً ؟ أو بعبارة أخرى لماذا اختار ثيوتوكا — ومن قبله الأغنية — أن يكون ما يبنيه رئيس البنائين ويعجز عن بنائه المرة تلو المرة جسراً على نهر آرتا ؟ لماذا لم يكن ما يبنيه رئيس البنائين سوراً أو قصراً أو قلعة أو داراً للعبادة أو ما شاكل ذلك من العمائر التى يحتاج بناؤها إلى الجهد والصنعة والمهارة أيضاً ؟ إن سبب إقامة المسرحية على بناء جسر لم يكن اعتباطاً أو من قبيل الصدفة ، بل كان أمراً مقصودا ومدروساً على أساس من الفكرة التى نسجت حولها الأغنية ثم المسرحية ، ألا وهى فكرة الحرية . إننا إذا تأملنا الإرادة ووضعها فى هذا الوجود فإننا سنجد أنها تتوسط عالم الفكر وعالم المادة . إنها المعبر بين الصورة وتحققها ، فهى إذن جسر بين العالم الداخلى الذى تعتمل فيه التصورات والرغائب وبين العالم الخارجى الذى تتحقق فيه تلك التصورات والرغائب . إنها إذن جسر يجتازه المستقبل ليصير حاضراً ثم ماضياً ، جسر بين الغايات وتحقيقها ، جسر بين الذات والموضوع ، بين الفكر والوجود ، بين الوجود كصورة والوجود كشىء متحقق ، بين الوجود المعنوى والوجود الملموس . إن إرادة الفنان هى المعبر بين الخيال وبين العمل الفنى ، بين تصوره لتمثال وبين التمثال المصنوع ، هى الجسر بين هبة الإبداع الذى يتصف به الفنان وبين ما أبدعته ملكاته فعلا .

وكما احتاج جسر آرتا إلى جهود لبنائه ولقى صعاباً اقتضت تذليلها ، كذلك الفعل الحر لا يأتى سهلا بلا عناء ، بل هو يزلزل كيان النفس ، كما يزلزل كيان الطبيعة ، وهما العالمان اللذان يربط بينهما الفعل الحر كجسر يربط بين ضفتين على نهر يشقهما ويحول دون التقائهما .

إن الجسر ذاته رمز كبير ، والإرادة هى الجسر بين الممكن والمتحقق ، بين

الباطن المضطرم والظاهر الذى هو الصورة المتحققة لذلك الباطن المضطرم ، بين الشعور والممارسة . وتدور المسرحية فى تلك اللحظة الحاسمة التى تتوسط الفكرة وتحققها ، أى لحظة الإرادة ، فرئيس البنائين وبجانبه زوجته ومساعدوه قد نقلوا الجسر من مجرد فكرة أو رغبة إلى حقيقة فعالة . صحيح أن الجسر لم يتم إلا عبر الدماء والعرق والدموع ، إلا أن هذا هو ما يصاحب فعالية الإرادة باعتبارها حركة موصلة ، وانتقالا بين عالمين لا التقاء بينهما إلا بتلك المعاناة التى هى سمة الإرادة باعتبارها فرضاً للعالم الداخلى على العالم الخارجى ، وبدونها تبقى الروح جوهراً منفصلا وشكلا بلا مضمون ، فى حين أنها ليست كذلك الأعلى المستوى النظرى فحسب .

أخذ ثيوتوكا إذن روح الأغنية ، وتلقف فكرتها الأساسية ،وبنى عليها عمله المسرحى الذى نقدمه على هذه الصفحات ، لكنه أضاف أيضاً إلى الأغنية وطورها ، ونمى أبعادها ، وأضاف إليها أحداثاً ونتائج وتعليقات وتعليلات هى التى خلقت من خلال الحوار والمشاهد العمل المسرحى الذى يحمل ذات الاسم الذى تحمله الأغنية . وهذا الذى فعله ثيوتوكا فى أغنية «جسر آرتا» فعله توفيق الحكيم عندنا فى مسرحيته «إيزيس» فقد أخذ أسطورة «إيزيس وأوزيريس» الفرعونية ، وعرض من خلالها كثيراً من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، ونمى فكرة الحب والوفاء . كما فعله أيضاً نجيب سرور عندما تناول أغنية «ياسين وبهية» وصاغ منها مسرحية شعرية من صنف «جسر آرتا» .

وكما اختصر الكاتب الفرنسى جان كوكتو فى صياغته الحديثة المركزة لمسرحية «أنتيجون» الكورس فى منشد واحد ، عمد جورج ثيوتوكا إلى الاكتفاء بعازف العود الذى تمضى كلماته تتابع الإيقاع التراجيدى فى

المسرحية وتضبطه وتعمقه بما تنطوى عليه تلك الكلمات من إيحاء إلى ضراوة الطموح البشرى ، وطهارة التضحية المبنية على الحب ، والإيمان بنظام طبعى له قداسة الالهيات .

وبينما تدور أحداث المسرحية حول حقائق محزنة تخفف الرنة الشاعرية فى كلمات العازف الضرير من جراح العالم الواقعى . لنستمع اليه يقول فى إحدى فقرات أغنيته : « طالما تأهبت للذهاب فى الرحلة البعيدة أرجوك أن تقولى لأمك متى ستعودين للبيت ، حتى يكون لى رجاء ، ولا يزول عنى الأمل ، وحتى أملأ لك الفناء زهراً ، وأفرش لك ورداً ، وأجهز لك طعاماً للغذاء وللعشاء ، وأعد لك سريرك لترقدى وتنامى » ثم تمضى الأغنية لتشدو فى موضع آخر منها قائلة « محظوظة هى الجبال ، محظوظة هى الحقول . إنها لاتنتظر موتاً ، ولا قاتلا تتوقع ، بل تنتظر ربيعاً ، وصيفاً جميلا » .

حقاً ، إن أسلوب ثيوتوكا فى « جسر آرتا » أسلوب يتسم بالصفاء والوضوح فى كل لحظة من لحظات المسرحية ، وإن كان فى جوهره يسير قدماً نحو تأملات بالغة العمق .

وكما كان يفعل سوفوكليس فى نهاية مسرحياته عندما يتكلم رئيس المنشدين مجملا للنظارة الهدف مما رأوا ، مقدماً لهم العظة والعبرة من المسرحية ، نجد ثيوتوكا فى المشهد الختامى من « جسر آرتا » يفعل المثل . فهذا المشهد قد يبدو خطابياً وغير مسرحى إلا أنه فى الواقع إحياء للتقليد الاغريقى . ولا يحق لنا أن نتصور أن « جسر آرتا » قد اكتملت درامياً بعد مشهد بناء الجسر بحيث يخيل لنا أن المشهدين الأخيرين عديما الجدوى فى نماء المسرحية وتطويرها ، إذ يجب أن نضع فى الاعتبار كيف بنى ثيوتوكا مسرحيته ، جاعلا منها تنويراً لجوانب الأغنية أكثر منها حركة مطردة إلى اللحظة

الأخيرة . ولقد استعاض فى هذين المشهدين عن قوة الحركة بجمال الشعر وشفافيته .

وأخيراً ، إن جورج ثيوتوكا الكاتب اليونانى المعاصر سليل الاغريق عرف صنعتهم ، وسبر أغوار عبقريتهم ، ثم قام بتجربته «جسر آرتا» فكانت تجربة جمعت بين الاصالة وفهم الأقدمين . واجه ثيوتوكا فكرة تجاوز الحدود وفكرة التكفير وفكرة أن الانسان ليس ضحية فحسب ، بل هو مذنب جلاب للشقاء ، وأضاف إليها تجربة المسرح العالمى : مسرح شكسبير ، ولوركا ، وسارتر .

نعيم عطية

تنويه واعتراف

والآن أفرغ لأنوه بفضل أعضاء لجنة المسرح العالمى فى نشر هذا العمل . لأول مرة فى تاريخ المسرح العربى ينقل إليه أثر من المسرح اليونانى الحديث أو المعاصر ؛ ولكن أعضاء اللجنة ما أن اطلعوا على « جسر آرتا » حتى وافقونى على أنها محاولة تستحق أن تنقل لقراء اللغة العربية .

وأخص بالذكر منهم الدكتور محمد محمود السلامونى والدكتور محمد سمير عبد الحميد والأستاذ أحمد عباس صالح والدكتور محمد اسماعيل الموافى . والأخيران كانت لهما ملاحظات على المقدمة أدت إلى تبسيطها واختصارها . كما أن الدكتور الموافى قد أطلق عليها الاسم البديل « الثمن الفادح » لكى يقربها إلى الأذهان .

نعيم عطيه

جِسْرُ آرْتَا

أو

الثمن الفادح

شخصيات المسرحية

- رئيس البنائين
- الزوجة
- العجوز
- المساعد
- عازف العود
- الشبح
- عابر السبيل
- الجارة الأولى
- الجارة الثانية
- الحارس الأول
- الحارس الثانى
- مواطن
- عمال ، فتيان وفتيات ، قساوسة ، ومواطنون .

مشاهد المسرحية

- المشهد الأول : فى بيت رئيس البنائين ، ليلا .
- المشهد الثانى : عند منشئات الجسر ، الليلة ذاتها .
- المشهد الثالث : فى بيت رئيس البنائين ، الليلة ذاتها .
- المشهد الرابع : عند منشئات الجسر ، فى صباح اليوم التالى .
- المشهد الخامس : بعد سنوات عديدة ، عند أبواب المدينة .

المشهدُ الأولُ

(فى بيت رئيس البنائين ساعة الغروب . تهز الزوجة أرجوحة طفلها ، وتغنى بصوت خفيض)

الزوجة : نم ، يا من بعثت أطلب لك من المدينة ذهبا ،
ومن فينيسيا ثيابك وحليك .
نم ، يا من يحيكون فى المدينة غطاء سريرك ،
ويزينه لك اثنا واربعون نساجاً ،
يضعون فى الوسط نسراً ، وفى الطرف ينسجون طاووساً .
نم ، يا من أبوك ملك، وكان جدك سلطانا .
(يسمع رنين أجراس . تتوقف الزوجة عن الهدهدة . وتتطلع إلى النافذة) ما الذى حدث ، أيتها العذراء ، لتدق أجراسك فى مثل هذه الساعة ؟ دعى النوم يحل بنا فى هدوء وسكينة ، وها قد بدأ يداعب أجفاننا فعلا .
(تعاود الهدهدة)

أيها النوم الذى تأخذ الاولاد ، تعال خذ هذا الوليد ايضا . صغيرا ، صغيرا أعطيه لك لتعيده إلى كبيرا ، كبيرا مثل جبل عال ، وممشوقا مثل شجرة سرو تمتد أغصانها شرقا وغربا .

(تدخل العجوز ، فتشعر الزوجة بحضورها)

هل عدت من قداس المساء، يا أماه ؟

العجوز : أجل ، عدت .

الزوجة : هل أشعلت أربع شموع للعذراء ؟

العجوز : أربعا ، حسبما طلبت .

الزوجة : هل صليت من أجل الجميع ؟

العجوز : قمت باللازم .

الزوجة : أنا ما عدت أجد الوقت ، لكن ما دمت أنت تتلين الصلاة ، فالأمر سيان .

العجوز : لا بأس . ربما أخذت العذراء ، الأمر على هذا النحو . لقد عرفتنا جيدا ، ونحن نشعل لها الشموع ونفضى اليها بصغائرنا ، كل هذه السنين ،

الزوجة : منذ قليل بدا لى ، وأنا أهدهد الطفل، أن الأجراس قد دقت .

العجوز : سمعتها أيضا .

الزوجة : هل شيعت جنازة أحد ؟

العجوز : لم أر ميتا .

الزوجة : ربما شبت النار فى البلد ؟

العجوز : لم نسمع بمثل هذا الحديث .

الزوجة : إذن ، لماذا تدق الاجراس ؟

العجوز : من يدرى ؟

الزوجة : نام طفلى .

العجوز : إنى أراه .

الزوجة : أنظرى كم هو رقيق ووديع .

العجوز : مثلما كنت أنت فى سنه . ولم تفارقك الرقة والوداعة حتى بعد أن كبرت .

الزوجة : تحسبينه ملاكا صغيرا من ملائكة التصاوير المقدسة نيط به أن يرعى سيدتنا العذراء، وأن يجرى ملبيا طلباتها ، ولكن هذا الشاطر نسى عند قدميها وغلبته سنة من النوم . أنه لجميل، أليس كذلك ؟

العجوز : رعته عناية السماء .

الزوجة : سيدتنا العذراء طيبة ، ولا تغضب من مثل هذه الصغائر . إنها ترنو إليه من كرسيها العالى وتبتسم له . أماه ، لم تنظرين إلى هكذا ؟

العجوز : كيف أنظر اليك ؟

الزوجة : نظرتك تغشاها سحابة معتمة ، مفعمة بالقلق ، كما لو كانت رؤيتي تملؤك خوفا ، كأنني مصابة بمرض عضال .

العجوز : أنت ابنتي ، ومن دمي . ومن ثم عندما أحس ظلا يخيم عليك ، تسرى الرعدة فى أعماق وتتسرب إلى عظامى، كما لو كان الظل يتغشانى أنا .

الزوجة : لا يخيم على أى ظل ضار ، يا أماه . أنا مثل الأرض الطيبة ، مثمرة وأتدفق فرحا فى الشمس ، وزوجى هو الشجرة الكبيرة التى تبسط على أغصانها المورقة ، ويذود عنى الأمطار الهاطلة، والقيظ فى ظهيرة الصيف. وأحس فى كل ساعة من ساعات النهار والليل بجذور تلك الشجرة مغروسة فى أعماق تشدنى بقوة إلى جذعها .

العجوز : نظرته أضحت صلبة ، وأمسى وجهه جامدا كأنه قد من صخر ، وصار شأنه شأن الحجارة التى يعمل فيها . كل ما فيه من روح وحياة قد تحجر .

الزوجة : ولد زوجي ليصارع الصخور الصلبة التي تنجبها هذه الأرض العتيقة ، ويبسط عليها سيطرته، ويعمل فيها صنعته، ويقدم بواسطتها صلواته إلى الله، ويبلغ تعاليم الله إلى البشر ، لكن عمله شاق يثقل روحه ، ولا ينزاح الحمل عن كاهله الا بالليل عندما يروح فى النوم إلى جوارى ، فيعود من جديد إلى سجيته ، بوجه مثل وجه صبي صغير وديع ورقيق .

العجوز : أنت تحبينه ، ولا ترين فيه الاحبك له ، فواجبك وحقك أن تمتلئى بالحنان على الرجل الذى تزوجك شرعا، وأن تؤمنى به ، لكن الحب لا يدعك تبصرين التغيير الذى تسرب إلى روحه ، ولا ترين أمامك دائما إلا الفتى الوضيء الذى دخل ذات يوم ، مثل ملاك ، بستان أبيك المزهر ، وأخذك من يدك، وأعلن خطوبته لك .

الزوجة : وما الذى يعنينى لو كان قد تغير ، يا أماه ، طالما أنه لا يزال فى نظرى كما كان منذ البداية ، متزن ، وقور ، ممتلىء بالافكار والاحلام ،

مستقيم ، قوى مثل الأعمدة الذى يرسيها ، ثم
جاء الليل انقلب صبيا رقيقا يرنو إلى بنظرة
حزينة فى ضوء المصباح ؟ أم ربما تغير ما هو
مقدر لى، ولم أعد امرأته المختارة التى يوليها
إخلاصه ، ويكفل لها راحة البال ؟

العجوز : تتكلمين عن نفسك ، يا بنية ، لكن سعادة
هذا البيت لم تعد مسألة تخصك وحدك .
أنسيت أن ثمة مخلوقا اخر يعتمد عليك فى هذا
الوجود ؟

الزوجة : ليس لولدى أن يخشى شيئا . إنه ابن بناء ذائع
الصيت ، إنحدر عن أجيال من الصناع
المجيدين ، جيلا بعد جيل ، وأبا عن جد حملوا
اليه أساليب الحرفة وأسرار الحجارة، ويقف
وراءه بناوو «ايكاتوندابيليانيس» و «القديسة
صوفيا» وبناوو «ميسترا» — كل الاجداد
المحسورين الذين كانوا يعبدون الآلهة القديمة ،
ويقيمون على قمم الصخور الشامخة صفوفا من
الأعمدة البيضاء تبدو من بعيد كما لو كانت تمايل
مع الريح مثل الطيور. سينظر الناس إلى ابنى
بعين الاعتبار والاحترام، وسيأتى اليوم الذى

تنتصب فيه أبراجه هو الآخر قائمة إلى جوار عمائر أبيه ، كأنما حياة زوجى قد تفتحت بعد خمود ، كأنما الكفاح القديم المضنى الثقيل الذى لا نهاية له قد بدأ من جديد .

العجوز : من شأنك أن تتطلعى إلى المستقبل بتفاؤل ، وأن تنسجى الاحلام، وتسبحى فى الخيالات، اما أنا فمن شأنى أن أتعذب مع الماضى والذكريات التى لا تزول . عشت مع أجيال مختلفة من الرجال . فى أول الأمر كان أبى هو السيد المطاع ، ومن بعده تولى اخوتى مقاليد الأمر والنهى ، ثم كان ذلك الرجل الذى اتخذنى زوجة له فانجبتك . ماتوا جميعا ، ولكن صدقينى ، إنى عرفتهم حق المعرفة . عندما تتحجر نظراتهم وتنضح بالبرود، وتشعرين أن روحهم قد نسيت بعيدا ، خارج عالمنا المستكين ، واختلطت فيها المرارة بالحلاوة والعذوبة ، وعندما يشقون كما لو كانوا مسمرين إلى خشبة الصليب ، فى خضم أحلام مهولة وخرافات وشياطين وأبخرة ، وعندما يعجزون عن الوصول إلى ما هو بعيد المنال ،

وأن يتحرروا مما هم فيه ليعودوا الينا نحن مخلوقات الأرض ، نحن النساء المتواضعات باجسادنا العليلة وقلوبنا الجريحة ، عندئذ ، حذاري ، حذارى أنهم يصبحون قساة .

(بينما تتكلم العجوز تسمع دقات الأجراس مصحوبة بهمهمات الجموع)

أصوات : اللعنة على الجسر ! اللعنة على المدينة ! احترسوا من الشر !

(تدخل بضع جارات وصغارهن)

الجارة الأولى : يا جارة ، ما هذه النكبة الجديدة ؟

الجارة الثانية : أنها المرة الثالثة ، يا للمسيح والعذراء ! إنها المرة الثالثة !

الزوجة : ماذا حدث لكن أيتها النسوة الطيبات ؟ ما هذه الضجة ؟

الجارة الأولى : ألم تعرفى الخبر ، أنت يا من كان يجب أن تكونى أولى من تعرفه ؟

الزوجة : لا أعلم شيئا ، أيتها النسوة الطيبات . أية نكبة جئتن تبلغننى بها ؟

الجارة الأولى : ألم تسمعى الأجراس تدق بجنون ؟

الزوجة : سمعتها ، وكنت أسأل أمى ما معنى هذه

الدقات التي تمزق سكون الليل ، فأجابتني انها لا تعرف ما الخطب .

العجوز : وكيف أعرف أكثر مما تعرف هذه النساء ؟

الزوجة : أماه ، ثمة شيء تخفينه علي . تكلمن ، أيتها النسوة الطيبات . ما الذي يجري؟ لقد جعلتن الفزع يستبد بي .

الجارة الأولى : الجسر ، يا جارتي الطيبة ، الذي شيده زوجك رئيس البنائيين ، جسر آرتا انهدم ليلة أمس .

الزوجة : إنهدم ؟ مرة أخرى ؟ .

الجارة الثانية : للمرة الثالثة ، يا الهي . إنه لنحس كبير .

الجارة الأولى : وعرفت الحقيقة توا بعد أن آب العمال إلى المدينة . الشعب قد أسقط في يده . ما من أحد يعرف ماذا يجب أن يتصور .

الزوجة : مرة أخرى ؟ أماه ، كيف يمكن ذلك ؟

الجارة الثانية : اسألي زوجك ، يا جارتي . لو كان ثمة من يدري فانه هو .

(يدخل رئيس البنائين)

الجارة الأولى : نحن منصرفات ، يا جارتي . لا حول ولا قوة الا بالله .

الجارة الثانية : ياليسوع والعذراء . إنه لنذير شئوم كبير .

(يجمعن صغارهن وينصرفن)

رئيس البنائين : يبدو الطريق طويلا عندما يعود المرء إلى جوار زوجته وولده بعد عناء يوم كامل فى الريح الباردة وبين الحجارة الصلبة التى لا تطيع .

الزوجة : أحس أن جسمك ، يا بنائى ، ما زال متوترا من وعثاء العمل. إجلس واسترح، فمن حقك أنت أيضا أن تتخفف من مشاغلك لحظة .

رئيس البنائين : الجسد سيرتاح من تعبه سريعا . هذه الآلة ما زالت متينة ولا تخش الكفاح ، حمدا للرب .

الزوجة : روحك مضطربة ومثقلة بالمرارة ، هل حط من شأنك أحد ؟

رئيس البنائين : ما من أحد معين بالذات .

الزوجة : أرى ألما هائلا فى نظرتك يتغشانى ، ويملأ روحى بالألم أنا أيضا .

العجوز : ليس لعجوز مثلى أن تقف بين زوجين شابين ساعة حديثهما عن الروح والجسد . الأفضل إذن أن أنسحب ، فلست قادرة على أن أسدى عونا ، مهما كان المصاب .

الزوجة : إنصرفى ، يا أماه ، ولا تؤرقى بالك بعذاب عابر . بيتنا يقوم على دعائم وطيدة ، والبناء

الذى نرتكن اليه قوى المنكبين .

رئيس البنائين : نامى ، خالية البال ، يا أماه . اننى فى عملى السيد الذى كنت دائما ، وسأفعل ما فى وسعى ليتحقق دائما ما اعتقد أنه الصواب .

العجوز : وليتولى الله الباقى بحكمته وعدله .

(تنصرف العجوز . يشرع الليل فى إرخاء سدوله . توقد الزوجة مصباحا)

رئيس البنائين : أنها تخشانى . أشعر فى صوتها أنها تتوجس منى شرا . من يدرى ماذا دهاها ، العجوز المسكينة . أنا أيضـــا لم أعد أميز الخير من الشر .

الزوجة : العجائز ينزعجن بسهولة ، مثل الأطفال . وعلينا الا نلقى بالا اليهن . إنس أحزانك ، يا عزيزى . ألسنا إلى جوارك ، أنا وأبنك ، مهما حدث ؟

رئيس البنائين : الحجارة ، لا تطيع يا امرأة .

الزوجة : وما شأن ذلك بالحب المزدهر فى بيـ ـا ؟

رئيس البنائين : الحجارة ثقيلة ، صعبة ل ، لكنها تفلت من بين أصابعى مثل الرمال . جسر آرتا يأبى الوقوف على قدميه . لا يريد أن ترسى دعائمه ،

ولا أن يرتكز على أرض وطيدة . إن الحجارة
بالنسبة إلى حياتى ، ولم أعد أعرف ماذا أفعل ،
وماذا أقول .

الزوجة : ونحن ، يابنائى ، ألا نعنى بالنسبة إليك شيئا ،
نحن أسرتك الوفية ؟

رئيس البنائين : لا محل لهذا السؤال ، يا امرأة .

الزوجة : حديثك مثل حديث القديسين والأنبياء ،
مليء بالكلام الغريب والإشارات المبهمة .
لا شأن لى بمعرفة هذا ، أنا البسيطة الساذجة .
إنى لا أعنى بشىء سوى زوجى وبيتى وولدى .

رئيس البنائين : عندك كل هذا فتشبثى به جيدا ، ولا تتدخلى
فى أشغال الرجال . لماذا تتساءلين عن أمور
لو عرفتها لركبك الخوف ؛ ؟

الزوجة : لاينتابنى الخوف إلى جوارك . ما الذى أخشاه
طالما كنت هنا إلى جانبى ، وكانت لى العذراء
هناك عاليا ؟ ألم أسمع الناقوس، وأعرف الخبر
الذى انتشر ؟ ولكنى لم أنزعج لأنى أعرف قوة
زوجى وقد رأيته يكافح السنين الطوال وينتصر.

رئيس البنائين : ذهب عملى طوال الشهر الماضى بأكمله سدى .
ومثل المرتين السابقتين اللتين أنهار فيهما الجسر ،

لم يقدر لأحد أن يتعرف على مصدر الشر الذى وقع . لقد أمضيت يومى بين الأنقاض أرفع الأحجار باذلا جهدى لأعثر على العيب الخفى الذى يجلب الدمار . لا أفهم ما الخطب ، يامرأة. لا أفهم .

الزوجة : أيها البناء ، لست أهلا لأن أحكم على عملك وأن أدلى فى شأنه بآراء ، ولكن يخيل لعقلى الضعيف أن التربة التى تقيم عليها بناءك تعوزها الصلابة الكافية .

رئيس البنائين : أعرف جيداً تربة اليونان . درستها شبرا شبراً ولم أبن إلى اليوم قط على أرض رخوة ، وهذه الأرض التى بنيت عليها الجسر أمتن أرض شققتها بمعولى .

الزوجة : إذن ، ربما أنك ، يا بنائى لم تختر المواد المناسبة للبناء .

رئيس البنائين : أعرف موادى كما تعرفين أنت كل سر من أسرار البيت . إنى أختبرها بعينى وبيدى أفضل مما تجهزين أنت طعامك على النار . لم ينجح أحد فى أن يغشنى حتى اليوم .

الزوجة : لعمرى ما الذى أفهمه أنا فى هذه الأمور ؟ إنه

كلام أطلقه على عواهنه ، ولكن إذا كان الوضع كما تقول ، فليس مايمكننى أن أعتقده إلا أن ثمة عدواً يطاردك ، أحد الحكام ضايقته ،أو زميلا لك تسببت فى بطالته أو أرقه ذيوع صيتك، ويغيظه أن يرى جسر آرتا على أهبة أن ينبسط مثل علم خفاق فتلقّى الثناء والتمجيد ، ومن ثم يبعث تحت جنح الليل برجال مزودين بآلة خفية يهدمون بها عملك فيشقّى قلبك، ويسعد هو بذلك .

رئيس البنائين : بنائى يحرسه بالليل رجال مسلحون هم اتباع مخلصون ، ولم يتسلسل اليه من الخارج أحد .

الزوجة : إذن قل ، ما الذى تعتقده انت غير ذلك ؟ فانى ألمس فكرة تحوم فى عقلك، ولولم تفصح عنها .

رئيس البنائين : عندما دعانى وجهاء القوم وطلبوا منى القيام بهذا المشروع، الكبير ووعدونى بكل ماطلبته، وتركوا لى أن أصمم كل شىء وفق ماتهواه روحى ويصبو إليه عقلى ، كنت رجلا سعيداً . أنت تعرفين ذلك بالطبع أفضل ممايعرفه أى شخص آخر .

الزوجة : أجل، يا رجلى الطيب ، أعرفه خير المعرفة .

رئيس البنائين : بعد سنين عديدة من التجوال والبحث وجدت

إلى جوارك راحة القلب والجسد، كما عرفت بين عددى وحجارتى متعة العمل الطيب . كنت سيد عملى . شيدت العمائر الصعبة، وأرسيتها على أسس وطيدة . نفذت بالحجارة كل نزوة خطرت لى ، ولم يعل على أحد ، لكن جاءت الساعة التى ارتبطت فيها بهذا العمل الكبير الذى لم يخيل إلى أنه سيكون أصعب من غيره . رغم أن جسدى قد استشعر مشقته ، ربما لأنه جاء فى أعقاب أعمالى الأخرى، وكنت مثقلا بكل تلك الخبرة والشهرة والمسئولية . عندئذ رهبت عملى وحياتى لأول مرة .

الزوجة : لكنك لم تتوقف ، بل مضيت قدما بذات اندفاعك السابق .

رئيس البنائين : أجل ، مضيت قدما وفى حلقى غصة ، والرهبة تملأ روحى . كنت مثل متسلق الجبال الذى ألف أن يتسلق راجلا أكثر القمم وعورة . لم ترعبه المرتفعات أبدا ، ربما لأنه لم يفكر فى الأمر قط. وفى ذات يوم رأى من تحته الناس مثل النمل والقرى مثل لعب الأطفال، فانتابه الرعب، وجف الدم فى عروقه . مضيت قدما لأننى لم أكن

أقوى على غير ذلك ، لكنك ترين أنني لم أصل إلى شيء ، وانى أدور فى حلقة مفرغة معلقاً على شفا الهاوية . غنمى الوحيد انى بدأت الآن أخمن ما الذى كانت تعنيه رهبتى تلك . كانت إشارة من قدرى تقول لى ، على مايبدو ، أنه فى النهاية قد جاءت اللحظة التى أشعر فيها أنا أيضاً بذيل يتلوى بين قدمى مثل حية من حيات الماء ، ومن الأفضل ألا أنبس باسم صاحب ذلك الذيل هنا فى هذه الحجرة حيث ينام ابننا .

الزوجة : (ترسم علامة الصليب على الصغير) . غفرانك ، يا يسوع .

رئيس البنائين : يا امرأة ، جسر آرتا ركبته الشياطين وأخشى أن تتسلل إلى حياتى كلها .

الزوجة : أيها البناء ، ما شأننا والشياطين ، ولم يذكروننا ؟ ترى هل لعننا أحد ، أم أننا اتحنا لها فرصة ؟

رئيس البنائين : لا أعرف منذا الذى لعننى ، لكن ما أكثر الفرص التى أتحتها لها منذ أن أدركت الدنيا ، وأنا فى صراع مع الحجارة والناس لأخلق العمل الذى يقدر له الخلود على مر الزمن ، وهذه ، كما ترين ، قصة يروق للشياطين أن تتلهى بها ، وتجذبها كما يجذب

اللبن المكشوف بالليل الحيات فى الحقول . إن الشياطين تبغى منى شيئا .

(يفتح الشباك بعنف ويطل منه صائحا فى الظلام)

يا شيطان الليل ، تكلم ، إذن. تكلم ، ماذا تطلب؟ انى مستعد للحديث. أريد أن أفرغ من الحساب. كفاك هزلا. إيه ، يا حضرة الشيطان ، ألا تسمع؟

(تتابع الزوجة المشهد فزعة . ثم يفد من بعيد كاجابة على النداء غناء تردده أصوات رجال)

أصوات : تبالكدنا ، والخسران على عملنا . الأيام الطوال نبنى ، وبالليل يهدم مابنيناه .

رئيس البنائين : إنهم رفاق ، يهيمون فى الظلام من درب إلى درب ، مثل اللعنة الظالمة ، متعانقين ، وقد خيمت عليهم التعاسة . جسر آرتا سحرهم هم أيضاً. ستصاب نساء كثيرات الليلة بالأرق ، ويذرفن الدمع وحيدات فى أسرتهن ، دون أن يعرفن لم كف أزواجهن عن حبهن .

(يعاود الصياح فى الفضاء) .

يا شيطان الظلام ، أيها المازل اللعوب ، أى شيطان كنت ، غولا ، أوجنا ، عنقاء ، أوذئبا

خاطفا، يا رسول الهلاك، إنى أناديك أن تظهر وتتفاهم .

أصوات : (من مكان أبعد) تبا لكدنا، والخسران على عملنا. الأيام بطولها نبنى ، وبالليل يهدم ما بنيناه.

الزوجة : أيها البناء ، أغلق النافذة ، ودع الشياطين فى فى الخارج . كل هذا ليس من صالح ولدنا .

(يغلق رئيس البنائين النافذة، وتجلس الزوجة إلى جوار الصغير مترقبة ، فى الوضع الذى كانت تجلس عليه فى أول المشهد ، وتعاود الهدهدة بصوت خفيض) .

نم ، يامن بعثت اطلب لك من المدينة ذهبا ،
ومن فينسيا ثيابك وحليك ......



المشهدُ الثّانيُ

(الليلة ذاتها، فى منشئات الجسر، وقد أضفى عليها القمر ضياءه . أعمدة منهارة . مواد بناء مكدسة . مصباح موقد معلق . حارسان ينظفان بندقيتهما . هناك شخص ثالث على المسرح هو عازف العود ، عجوز ضرير ، لايبدو أنه يعرف الآخرين. يضبط بين الحين والحين عوده، ويعزف عليه ، شاديا بأبياته كما لو كان يستلهمها فى تلك اللحظة . تصفر الريح .)

عازف العود : خمسة وأربعون بناء ، ومن الصبيان ستون .
مضوا يبنون على نهر آرتا جسراً .
طيلة الأيام يبنون، ثم يمسى بالليل منهارا .

(يعلو صفير ،الريح بشدة، ويهتز من فرط الريح ناقوس بعيد فتتعالى دقاته منفلته بلا ضابط) .

الحارس الأول : الجو انتابه سعار .

الحارس الثانى : صفرى ، لعنة الله عليك .
الحارس الأول : العفريت يعبث بالأجراس أيضاً .
الحارس الثانى : لايكفى أن الجنون ركب الجسور ، بل جنت النواقيس هى الأخرى .
عازف العود : البناؤون عند جسر آرتا كانوا ينشدون
أغنية عالية حافلة بالشكوى ،
ومن فرط النغم الحزين والأغنية الكليمة .
إنشرخ الجسر ، وكف النهر عن الجريان .
أيها الرفاق ، دعكم من النواح ، وأنشدوا أغنية أخرى ، لعل الجسر يلتئم صدعه ، ويعود النهر إلى الجريان .
الحارس الثانى : (منشداً) كيف نعدل عن النواح ونكف عن الغناء ، وفى قلوبنا ألم ليس لنا منه شفاء ؟
الحارس الأول : أنغنى ؟ هذا هو الذى ينقصنا . ألايكفى كل ما نحن فيه ؟
الحارس الثانى : الأفضل أن نغنى بدلا من أن نبكى ، طالما ليس باستطاعتك أن تفعل شيئاً آخر (تصفر الريح من جديد) .
صفرى ، سود الله سنيك . لعمرى ، تخالها الشيطان ذاته .

الحارس الأول : أتؤمن بالشيطان ، أنت ؟

الحارس الثانى : لاأعرف بما أومن ، وحق العظام المقدسة . إنى لا أفهم الكثير من كل هذه الأحداث التى تحدث لنا ، والتى لم يسمع أحد بمثلها من قبل. إلا أن ثمة ذيلا شريراً بدا يتلوى ويتحرك ليلة أمس بين أحجار جسر آرتا ، ومن المؤكد أنه ليس ذيلك ولا ذيلى .

الحارس الأول : يلوح لى انك غير واثق من نفسك الليلة يارجل، من يرى بالليل ذيولا تمشى لايصلح لحمل السلاح .

الحارس الثانى : ان ما يحدث هنا لايحارب بأسلحة وعتاد .

الحارس الأول : إذن استعمل الأحجبة والتعاويذ ، ولكن أغفرلى إذ لا أستسيغها . هذه البندقية القاتلة التى أربت عليها تبدو لى أكثر ملاءمة للموقف ، فهى ستر ديه قتيلا ، ذلك الخبيث الذى يعاكسنا ، أيا كان . ولعمرى أين سيهرب منى ؟

(صفير الريح) .

الحارس الثانى : صفر ، يا شيخ الهازلين .(لزميله) فلتضرب إذن ، لنرى ما الذى تقوى عليه بسلاحك .

الحارس الأول : يبدو لى أنك على وشك أن تؤمن بأن صفير الريح
هو صوت الجحيم . بل انى أرى يدك ترتعش
فى ضوء المصباح . لعمرى ، هل فقدت عقلك؟
حتى أمس ، كنت متمالكا نفسك على خير وجه.
لقد رأيت الجسرينهار فى الليل مرتين من قبل،
دون أن تفقد صوابك، فهل انهرت أنت أيضاً
بعد المرة الثالثة ؟

الحارس الثانى : ربما . ولكن ترى من هوأكثرنا انهياراً بسبب
هذا البنيان ؟

الحارس الأول : فليكن من يكون، ولتنزل به الكوارث، ولكنى
على أى حال أتساءل إذا كان لمثل هذا الحيوان
وجود. ذلك الملعون الذى يبعث فيك الرعب،
ما الدافع له على أن ينشغل بأفعالنا وصغائرنا
مضيعا وقته معنا،وهو ذلك المارد المسيطر على
مملكته ؟ هلا قلت لى، ما هو السبب الذى أتى به
إلينا ؟

الحارس الثانى : ما الذى يدرينا؟ ربما يرد أن يتركنا لنعثر على
السبب وحدنا .

الحارس الأول : ما الذى يدور فى عقلك من جديد ؟ يبدو أن ثمة
ما تفكر فيه ؟

الحارس الثانى : عقلى تغشته غشاوة. يخيل إلى أن كل شيء أضحى حلماً ووهماً.

الحارس الأول : لقد مسك القمر وأصبت بلوثة. جازاك الله. لعمرى أن الأمر غامض مبهم، ولكنى أفضل ليلة من ليالى الصيف سوداء مثل القار، تفترش فيها الأرض وتسند وجهك إلى التراب، ولكنك تحس على أى حال بالهواء من حولك، وقد تحرر من الأحلام والخيالات.

الحارس الثانى : من الذى رسم تصميمات الجسر؟ من الذى يقوم على تنفيذها؟

الحارس الأول : من غير رئيس البنائين.

الحارس الثانى : لابد أن فى الرجل عيبا من العيوب.

الحارس الأول : هذا كذب، وقلة أدب.

الحارس الثانى : ربما تطارده لعنة ما، خطيئة ارتكبها أباؤه، أو ـ لست أدرى ـ ربما هناك أمر متعلق بأهل بيته.

الحارس الأول : أيها الرجل، ما هذا الذى يدفعك القمر إلى التفوه به؟

الحارس الثانى : حبه لتلك المرأة زاد عن حده.

الحارس الأول : هذه غيرة منك، وشهوة جائرة. أليس من

حقه أن يهوى المرأة التي اتخذها لنفسه زوجة شرعية ما شاء له الهوى ؟

الحارس الثاني : هذا حق . من قال العكس ؟ ولكن كل هذه العاطفة وهذا العشق ، كل هذه السعادة تضحى إثما وخطيئة . الناس يقضون على بعضهم بعضاً من فرط الحقد ويشوون بعضهم بعضاً بالنار من فرط الكراهية . الناس ينغمسون فى الرزايا والدموع ، بينما هما ينعمان بكل ذلك العشق ، وبكل تلك السعادة .

الحارس الأول : إصمت . إنك تفرط فى الكلام .

الحارس الثاني : لاأنكر أن هذا حقه ، ولكن الأمر ينقلب ظلما أيضاً ، وماكان ظلما لايباركه الله .

الحارس الأول : إصمت . إنى أرى شيئاً (يرفع المصباح) ثمة شبح .

الحارس الثاني : انهما شبحان .

الحارس الأول : من هناك ؟

رئيس البنائين : أنا .

الحارس الثاني : إنى أسمع صوته .

الحارس الأول : لو كنت رئيس البنائين تقدم . لو كنت غريبا

إمض لحال سبيلك ، لأن لدينا أمراً بأن نطلق النار . لو كنت شيطانا ..

(تسمع ضحكات . يدخل رئيس البنائين ، ومساعده الذى يضحك . يحمل المساعد عصا)

المساعد : أعتقد الصديقان أننا من الشياطين .

رئيس البنائين : لارغبة لدى فى الضحك، أيها الصديق، (إلى الحارسين) هل حدث شىء ؟

الحارس الأول : كلا . أيها الرئيس .

رئيس البنائين : ألم يدلف إلى هنا أحد ؟

الحارس الأول : لم يزرنا أحد سوى القمر ، وأشعته المتسللة .

المساعد : وضوء القمر يجعلنا نرى خيالات . أليس كذلك ، أيها الصديقان الطيبان ؟

الحارس الأول : لا أذكر أننا رأينا خيالات أيها الرفيق، بل نرى نحساً مهولا فحسب قد حل بهذا البناء ، ولكنه لايصرفنا عن عملنا قط . بل نمضى فيه لانلوى على شىء .

المساعد : انك تتحدث بثقة ، ولكن ما أن تلتبس عليك الأمور حتى ينصرف حديثك إلى الجن . ولأننا لانريد أن نسلم بأننا لانؤدى عملنا على مايجب ،

نبحث نحن الأردياء الأشرار ، عن أسباب
غير طبيعية نفسر بها ما وصلت اليه أعمالنا ،
ونخلط كلامنا بالحديث عن الشياطين .وهكذا
تناثرت الحكايات عنا فى أرجاء البلاد ، حتى
كدنا نصبح أضحوكة الجادين من الناس .

الحارس الأول : لايستطيع عقلى أن يتبين ماهو هذا الشيطان الذى أسمع الناس يتحدثون عنه، ولا حتى أكترث بالجادين من القوم فى البلاد ، ولكن مادمت تسألنى رأيى فيما يحدث هنا فسأقول لك هذا : لو كان الجميع قد أدوا واجبهم على النحو الذى يؤديه من يقوم بالحراسة لكان المشروع قد شق طريقه إلى الكمال منذ أمد بعيد .

المساعد : الحمد لله . هاهو قول تلوح منه الصحة، إلا أن كل واحد يسعى إلى إلقاء اللوم على الآخر ، كما يتعـــارك الليل والنهار . على انى أود أن أوجه اللوم إلى الجماعة كلها دون أن استثنى نفسى. أقسم لكم ، وأقول اننا كلنا معا لسنا أهلا لأن نشرف رئيسنا .

رئيس البنائين : كفى شجاراً . قلتم مافيه الكفاية، ولا أرى جدوى من مثل هذه المناظرات . أنا واثق من العمل

الذى قمنا به هنا ، ومن رسومى وموادى .
إنى لا ألقى لوما على أحد، ولا أسمح بالمناقشة
وإلقاء التبعات .

المساعد : ولكن ثمة مسئولا ، لعن الله أصلنا ، فالحجارة
لاتنهار متى كان كل شىء على مايجب .

رئيس البنائين : ثمة شىء غير صحيح ، ولكنى لم أجده حيث
نبحث .

المساعد : بربك يا بنائى أين تريدنى أن أذهب باحثاً ؟

رئيس البنائين : لو كنت أعرف لما رأيتنى أهيم فى الليل متعقبا
الظلال فى ضوء القمر .

الحارس الثانى : فى قلوبنا فحسب لانجسر على البحث .

رئيس البنائين : انت تحدثت عن القلوب .

الحارس الثانى : تحدثت ، وبحق . الشقاء للقلوب كل الشقاء .

المساعد : يبدو الصديق كما لوكان عاشقا . هذا وقته هو
الآخر . ما من شىء ينقصنا سوى العشق .

الحارس الثانى : الحب — طليق لا أمان له .

رئيس البنائين : الأفضل أن يبقى الحب خارج هذه الحكاية .

عازف العود : لايجب فى هذه الجيرة أن يطلع قمر .
لابد أن تخيم الغيوم فقط، وأن يسود الظلام القاتم،
لأن لى حبيبة هى وحدها القمر.

كلما سعيت لرؤياها تبعثرت الظلمات.
وهى تتشاجر مع الشمس وتقول لها :
« يا شمسى العزيزة ، هلا طلعت لأطلع ، هلا
توهجت لألمع » .
وعندما سطعت الشمس فى الصباح جفت الزروع،
وطلعت البنت التى أحبها ، فذوت قلوب الفتيان
فى الضلوع .
(بينما ينشد عازف العود ، يظهر بين الأعمدة
شبح يتمهل ، ويقف على مبعدة) .

الحارس الأول : ثمه شىء ... هناك .

الحارس الثانى : باسم الله .

المساعد : ما هذا العبث ؟ من ذلك الضال الذى يختفى وراء
القناع ؟
(يتقدم نحو الشبح مهدداً شاهراً عصاه على أنه
فى منتصف الطريق يتوقف ويصرخ تاركا عصاه
تسقط ويمسك ذراعه الأيمن بيده اليسرى ،
ويئن ويجرى رئيس البنائين إلى جواره .

رئيس البنائين : ماذا أصابك ؟

المساعد : ذراعى . أحس ذراعى قد انكسر .

(يركع ضاغطاً ذراعه ، بينما يمسك به رئيس البنائين من كتفه)

رئيس البنائين : ياشبح الليل، ماذا تريدنا؟ (برهة صمت)مهما كنت ، انسانا مظلما، أو شبح ميت، أوشيطان. ماطلبك ؟ (برهة صمت)يا شبح الليل،لوكنت بشراً إظهر ، وإذا لم تكن فما الذى تبحث عنه بين البشر ؟

الشبح : (بصوت آت من بعيد)
لقد ناديتنى .

الحارس الأول : هل سمعتم ؟ لقد تكلم الشىء .

الحارس الثانى : رحماك ربى .

رئيس البنائين : أيها الشبح ، أنا لاأفهم هذه الأمور . إنى بناء، أقطع الحجارة . إنى انسان عادى عملى أن أقيم بشرف أبنية من الحجارة وفى النور . لا أن أكلم أصواتا غير بشرية بالليل . قل ، ماذا تطلب ؟

الشبح : أطلب ثمن العمل الذى تريد أن تخلفه فى هذه الأرض ، أيها البناء . لقد جاء وقت السداد بالنسبة لك أيضيا . هل أنت علىاستعداد ؟

رئيس البنائين : لو كنت أفهم شيئاً من كلامك فهوانك تطالبنى

بدية ، بدين على لم أكن أعرفه، أوكنت قد نسيته ، وذلك لتدعني أرسى جسر آرتا الذى هو عملى . سأدفع أيها الشبح . لا أخشى الحساب.

الشبح : إذا لم تدفن إنسانا لن ترسى جسراً على شاطىء النهر .

رئيس البنائين : تطالبنى بجريمة قتل ، أيها الشبح . لقد عرفت أنك مبعوث الجحيم، ولكنى سأقف وأتباحث معك،لأن المشروع ليس ملكى أنا ، بل ملك المدينة والشعب والرفاق الذين يجاهدون معى. وقد يوجد فى النهاية بائس من حياته،يتيم لابيت له،أومهدود من الأمراض والشيخوخة يرضى أن يهب نفسه فدية بوازع من الإيمان وحب الوطن أوبدافع من الضيق والتعب ، دون أن تكون ثمة حاجة إلى أن أصبح قاتلا . تكلم ، ماذا لديك تقوله غير ذلك ؟

الشبح : انت الذى ستدفع ، ولايصلح أن يدفع غيرك . ستدفن هنا مخلوقة رقيقة خدومة تجدها إلىجوار أرجوحة طفلك،وبالليل إلى جوارك، وهىعلى استعداد-كما تعرف-أن تفنى من أجلك الف مرة. أنها لم تتصور الأمر قط،ولكنه لوكان قدار

بخلدها ، لقالت بلسانها : يالها من سعادة .

رئيس البنائين : أتعني زوجتي ، أيها الشبح ؟ تطلب مني أن أدفن زوجتي بين الحجارة ؟! .

الشبح : انت الذى خرجت باحثا وصائحاً فى الليل . كف عن جسر آرتا إذن . لك مطلق الخيار.

رئيس البنائين : كلامك قاطع كحد النصل . أنت تعرف أني لاأستطيع أن أفرط فى زوجتي رغم أني مرتبط بهذه الحجارة بجسدى ذاته كما ارتبط بجسد زوجتي . انك بكلامك تمزق جسدى إربا إربا . إطلب مني أى شيء آخر. إطلب مني حياتي أو صحتي . هل تريد عيني ، أيها الشبح ؟ ها أنا أعطيك عيني . يكفى أن أرى مرة واحدة جسر آرتا وقد انتصب واقفاً فى الضياء .

الشبح : أنت حر .

(برهة صمت . يتلاشى الشبح فى ظلمة الليل)

الحارس الأول : عونك ، يارب .

الحارس الثانى : يا مخلص ! يا يسوع !

المساعد : (يئن) ذراعى . ذراعى .

رئيس البنائين : (يعاونه على النهوض) إنهض . أيها الرفاق ، هل سمعتم ؟

الحارسان : سمعنا .

رئيس البنائين : أكان الأمر حقيقة ؟ هل رأيتموه بعيونكم ؟ ألم أكن أحلم ؟

الحارس الأول : كان الأمر حقيقة ، علينا اللعنة .

الحارس الثانى : كان حقيقة ، ولنصب بالعمى لوكنا كاذبين .

رئيس البنائين : (إلى المساعد) أسمعت انت ؟

المساعد : سمعت .

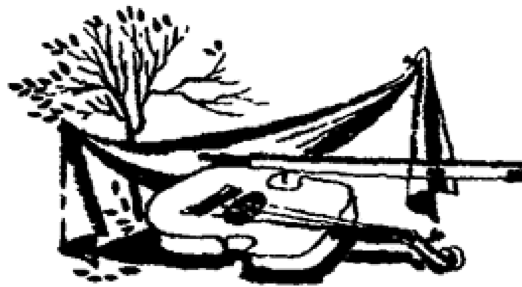
رئيس البنائين : هل رأيت هذا الشيء الذى تكلم .

المساعد : رأيته . ولتنزل على صاعقة لو كنت كاذبا . أوه، ذراعي . لا أدرى . لاأدرى .

رئيس البنائين : يا رفاقى ، إصغوا إلى . أتوسل اليكم . ترون انى قد خسرت الجلد والعظام ، ولم أعد أدرى شيئاً . أوه ، لو أمكننى أن أنسى كل هذا . ثمة من يهزأ بنا . ثمة من يلعب بنا . أصبحنا أضحوكة الشياطين والأشباح . أمسينا العوبة الليالى . تتقاذفنا الأشباح عابثة . أريد أن تولونى حبكم حتى لاأترك وحيداً مهجوراً فى هذاالحال الذى صرت عليه . الوجود أضحى حطاما . إنه لحادث مضحك ، ولكن ما الذى يعنينا ؟ ألسنا رجالا أحراراً أقوياء ؟ ألسنا شجعانا غير

هيابين تجرى الفتوة فى دمائنا ؟ إبسطوا الشراع .
لتحيا الحرية . الوجود يتلاشى ، أيها الرفاق ،
فليضح حطاما . تحية أيها الشبح !
(ينصرف يتبعه الحارسان ممسكين بالمساعد)

عازف العود : أيها الطاووس ذو الجناحين الذهبيين والساقين الفضيتين ،
يا من خضبت مخالبك بالذهب ،وعلى رأسك ارتديت تاجا ،
وفى قلبك كأس من اللؤلؤ ،
أيها الطاووس ذو الجناحين الذهبيين ،
أيها الطاووس ذو الجناحين الذهبيين ...



المشهدُ الثالِثُ

(الليلة ذاتها فى بيت رئيس البنائين . الزوجة نائمة . قنديل موقد . يدخل رئيس البنائين)

رئيس البنائين : سحقاً للجسر . سحقاً للمدينة . فى البيت موت ، وفى الفراش. نسيتنى أيها الموت، لكنى دعوتك . كنت قد كرهتك وازدريتك ، وكنت أمشى بخطوات ملؤها الكبرياء على التربة الدافئة . عشقت شمس الجنوب والضياء الساطع ، وارسيت وشيدت بقدر ما استطاع قلبى وجسمى . ملأت اليونان كنائس وأديرة ، وملأت الضياء أبراجا ، وصعدت عاليا إلى أجراسها بين الرياح الهوجاء ، وأفرغت فى زينتها سعادتى الهائلة ، وفرحتى العظيمة بالعمل والحياة . سعيت أن أقف منك موقف الند وأن أصارعك بأعمالى المصبوبة فى الحجارة ، وأن أرفع قامتى إلى ما هو أعلى من حدود الحياة . وددت أن أكون مثل حجارتى لا يتطرق إلى ذبول ،

ولا تطولنى شيخوخة،وأن أعلو على الفناء ؛
ولكن ها أنت أيها الموت قد أتيت وغمرتنى.
إنى أحس بك الآن تملأ كل شيء حتى الحجارة
فالحجارة محطمة ، ميتة . الحجارة حادة مثل
الحراب ، تدمى عقلى،وتمزق جسدى،جسدى
المشدود إلى ذلك الجسد الأنثوى بوشائج الحب
والألم .

(يهوى فى أحد المقاعد ، وقد دفن رأسه بين يديه . يظهر بجوار الزوجة فى الظلال عابر سبيل طويل القامة وسيم بسيط الثياب) .

عابر السبيل : أين تذهبين يا أمة الله فى الخلاء وقت الظهيرة ؟

الزوجة : (تتكلم وهى فى حلم) إستدعانى زوجى.

عابر السبيل : من هو زوجك ؟

الزوجة : رئيس البنائين . إنه يبنى جسر آرتا .

عابر السبيل : وفيما يريدك زوجك رئيس البنائين حتى يستدعيك فى جسر آرتا وقت العمل ؟

الزوجة : لاأدرى ولاأسأل . لقد أرسل يدعونى، وأنا ذاهبة اليه .

عابر السبيل : ولكن أنا أسأل ، يا أمرأة .

الزوجة : ومن أنت حتى تستوقفنى هكذا فى الطريق وتتحدث إلى ؟

عابر السبيل : فكرى ، فقد تتذكرى شيئاً .

الزوجة : انت محق، فإنى أميز فى ذاكرتى طلعتك الجميلة فيما يشبه سحابة ذهبية وضيئة ندية مفعمة بأريج الربيع ، وقد غمرك الجلال ، ولمع جبينك كما لو كنت تلبس تاجا، وكانت إلى جوارك صبية وديعة بريئة .

عابر السبيل : مثلك يا امرأة ، الليلة .

الزوجة : كنت تنحنى عليها وتهمس اليها بأمر . كنت تزف اليها خبراً فارتبكت المسكينة وخرت على ركبتيها تشكرك . أي خبر تأتى به إلى اليوم فى هذا الطريق بين الزهور والرياحين حيث وقفت فى انتظارى ؟

عابر السبيل : يا امرأة ، فيما يريدك زوجك ؟

الزوجة : لم يشرح لى الأمر ، ولكن ماكان بى حاجة إلى أن يدلى بأى إيضاح . لقد نادانى إلى جواره، وهذا حقه فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل.

عابر السبيل : يا امرأة ، فيما يمكن أن يريدك زوجك ،هناك فى أبنية جسره ؟ أى عمل لك بين البنائين ومصارعى

الحجارة وموقدى القمائن فى الوقت الذى يشقون فيه الحجارة، ويصنعون الجير؟ أية مساعدة انت أهل أن تسديها لأرباب الحجارة ؟.

الزوجة : طالما أنه يناديني فهذا يعنى أن ثمة حاجة به إلى. ليس العون الوحيد الذي يمكن للمرء أن يسديه متعلقاً بالحجارة والقمائن . ربما كان ماتحتاج إليه سعادته فى هذه الساعة هو أن يرانى فحسب.

عابر السبيل : أيتها المخلوقة البريئة ، طوال هذا الوقت أجاهد لكى أجعلك تشكين فى أن مايدور بخلد زوجك اليوم ليس هو ماتسمينه سعادة . إن زوجك لم يعد يتحكم فى حياته .

الزوجة : إنى أتبع زوجى ، حيثما أخذنى أروح ، وحيثما أعطى حياته أعطيت حياتى. أى شىء آخر يعنينى أن أعرف ؟

عابر السبيل : هذا الذى تحركت للذهاب اليه ربما طالبك بأكثر مما فكرت أن من المناسب أن يطلبه منك، يا امرأة. إن جسر آرتا لم يباركه الله بعد، وليست القوانين الإلهية فيه بسارية .

الزوجة : أيا كان ما يطلب منى أنا واهبة إياه منذ البداية . طالما قد أعطيت روحى كلها إلى رجلى ،فحياتى

تحت أمره، وليفعل بها ما يشاء . أيها الغريب، دعني أمر ، إن زوجي يدعوني اليه .

عابر السبيل : أنا لا أمنعك . اذهبي يا امرأة ، وقد كنت أعرف انك ستذهبين ، ولكن يجب أن تنبهي حتى لاتمضي خالية البال مطموسة العينين مثل حمل غرير ، فإن العدالة تقتضي ذلك .

(يختفي عابر السبيل . تستيقظ الزوجة فتلمح رئيس البنائين) .

الزوجة : أنت هنا ؟.

رئيس البنائين : عدت توا .

الزوجة : أين ذهبت ؟ .

رئيس البنائين : خرجت أستنشق الهواء .

الزوجة : رأيت حلما .

رئيس البنائين : ليس هناك إلا الأحلام .

الزوجة : رأيت انك استدعيتني في مبنى الجسر في حر الظهيرة ، وتحركت للقائك وفي الطريق استوقفني غريب وقال لي عدة أشياء غريبة .

رئيس البنائين : أما عن الأشياء الغريبة فلا تسألي .

الزوجة : حدثني عن الجسر ، عن القوانين الإلهية، وعن العدالة . ترى ماذا كان مطلبه؟هذا الجسر يطاردنا

ليل نهار . تعال ارقد وانس .

رئيس البنائين : لاأستطيع .

الزوجة : لاتترك نفسك تنهار .

رئيس البنائين : انى لاأترك نفسى . أنا متشبث بها بأسنانى. الطامة لوتركتها .

الزوجة : إنك تتكلم كما لوكنت تتوقع الشر من نفسك ذاتهـــا .

رئيس البنائين : أصبحت أتوقع الشر من نفسى .

الزوجة : مما تتوجس ؟ .

رئيس البنائين : قلت لك لا تسألى .

الزوجة : حسنا ، لن أعاود السؤال .

رئيس البنائين : نامى .

الزوجة : وانت ماذا ستفعل ؟ ستخرج من جديد إلى الطرقات فى الليل الموحش ؟ .

رئيس البنائين : سأبقى إلى جوارك ، أهدهدك .

الزوجة : أنا لست للهدهدة فحسب، بل أنا المرأة التى تحق لك روحا وجسدا .

رئيس البنائين : نامى . إنى أعرفك ، وأعرف امرأة من أنت .

الزوجة : تعرف ، ولكنك تنسى .

رئيس البنائين : ياليتنى أفلح فى نسيانك الليلة . أواه لو نسيت

تماما إنك قد ولدت .

الزوجة : يا رئيس البنائين ، هل كرهتنى ، اذن ؟ .

رئيس البنائين : كرهت نفسى ، إلى حد لا يمكن لعقلك أن يتصوره .

الزوجة : حديثك على هذا النحوِ الغريب الليلة يملأ نى خوفا .

رئيس البنائين : نامى .

الزوجة : لا رغبة بى للنوم وقد أحزنتنى .

رئيس البنائين : نامى ، واجتهدي أن تريِ أحلاما أخرى ، أحلاما جميلة . لا تضيعى الفرصة منذ الذى يمكنه ان يعرف كم ليلة بقيت له على وجه التأكيد لكى يحلم ناعم البال ويستمتع بحلاوة النوم ؟ .

الزوجة : يا رئيس البنائين ، انك تبعث فى قلبى الوحشة .

رئيس البنائين : كلا ، يا ربتى ، لا تنزعجى بلا جدوى . كلا ، وإنى لأتوسل اليك ، هذه المشكلة التى ورطت فيها يخيل انى لم اوفق فى حلها بعد . انها تبدو معقدة وصعبة الحل بالنسبة لعقل مثل عقلى المسكين ، وليقل القائلون ، ولينشد المنشدون بالليل فى العمائر المسكونة أن الأمر كله مرهون بحريتى أنا .

أتسمعين يا حبيبتى ؟ يالها من مسالة خسيسة تستثير الضحك والبكاء ؛ مسألة حرية اختيارى .

الزوجة : أيها البناء، لاأتبين ماهذه الحرية، ولا أفهم عن أية عقدة تمضى محدثا إياى فى الليل ، ولكن من أجلك تنتابنى الهواجس . كلماتك ملتوية ونظرتك سقيمة محمومة . لم أرك قط بهذه الهيئة ، أما أنا فماذا أخشى ؟ حياتى كلها قد وهبتها لك . أنت تمسك بها فى قبضتك . إفعل بها ما تريد . إذاكانت تستأهل شيئا شد قبضتك وأمسك بها، والا ألق بها إلى الرياح تذروها . انا ليس لى أن أفكر .

رئيس البنائين : ولكن أنا أفكر ، أيتها المخلوقة المسكينة . إنك لا تشعرين أى ثراء عريض جلبت على حياتى ، وأية مكانة عظيمة احتللتها فيها ، أنت الهادئة الضعيفة الخاضعة ، أنت بهيئتك الصابرة المتوسلة ، أنت يا من يعتقد المرء أنك مدينة بكل شىء ولا شىء ملك لك ؟ ولكن ماذا كانت حياتى ستكون بدونك ، أيتها الزوجة التى تبخس حق نفسها ؟ كانت ستكون شيئا مهلهلا وجثة عارية ملقاة إلى الكلاب .

الزوجة : أيها البناء ، أتحبنى إلى هذا الحد ؟

رئيس البنائين : أجل ، يا حبى المتأجج . أحبك .

(يركع ويقبل يدها)

الزوجة : (تربت على شعره) أنت الآن الصبى الصغير الذى يبخس قدر نفسه . إنهض . أتسمعنى ؟ يتملكنى الخوف إذ أبقى عند قدمى الرجل الذى طبقت شهرته الآفاق ، القوى الذى أقام فى الأرض قصورا شامخة ومعابد مرموقة فما أنا إلا امرأة عاجزة . لا أريد أن أراك على الأرض هكذا . أريد ان تكون لى عاليا . أن تحبنى سيدا وأن تتحكم فى . أيها البناء قم ، عد كما كنت .

رئيس البنائين : (ينهض) يا امرأة لا تاق بالا إلى . إن الحجارة تتحكم فى حياتى . ولم أعد أسيطر عليها. إنها أضحت تثقل فكرى وجسمى ليل نهار ، وتجثم على حبى لك ، ولهفتى على ولدى ، وعلى صلاتى فى الصباح . أنا مركب بلا ملاح ، روح مزعزعة ، رجل ركبه الغرور وفقد الصواب . هل تحسين ما بى ، أيتها المسكينة ؟

الزوجة : أجل يا بنائى ، أحس أناك تتألم .

رئيس البنائين . حتى اليوم كنت أصارع الحجارة وأنا أغنى

وأضحك بحماسة ،ومن كل قلبي تارة ، وتارة أخرى ـ أصدقك القول ـ ضاغطا على نفسى بعض الشيء لأحملها على الغناء والضحك ، وذلك لمجرد الظهور بمظهر الثبات والرجولة . كنت شابا ، والحياة سهلة وكان الله كريما سمحاً مبسوط اليد يتلقانى فى جنته بفرحة وترحاب . أجل ، كنت أضغط على نفسى قليلا فى بعض الأحيان ، وأخفى مخاوفى وعدم ارتياحى . ولكن ما كان يبدو لى الأمر بالغ السوء على أى حال . أما الآن ، يا امرأة ؟ الآن ؟

الزوجة : الآن، ستزول الغمة ، انها مجرد سحابة عابرة . يلزمك فقط بعض الراحة ولا شيء غير ذلك . لقد أرهقت نفسك فى الآونة الأخيرة .

رئيس البنائين : واحسرتاه ! لا يبدو أن التعب هو وحده الذى ألقى بى الليلة فى هذا الاضطراب، ولا القمر هو وحده الذى مسنى بهذه اللوثة . ثمة أمر آخر يجرى ،والأفضل أن ندعه جانبا : حريتى أضحت موضع حديثهم ، والكثير يقال عنها فى المواطن الشيطانية التى يغمرها ضياء القمر .

فجأة تضخمت الحجارة وركبتها اللعنة، وألقت في أرضا . راحت الأوقات الطيبة ، وانقضت الأوقات الخالية من الهموم المفعمة بالغناء . لقد تأزمت الأمور الآن . لا تزجريني ، يا نور عيني لو كنت آني في جنح الليل، وأثير فيك الرعدة . ليس الذنب ذنبي أيتها المنكودة .

الزوجة : الذنب ذنبي أنا ، يا بنائي ، أنا المرأة قليلة الحكمة والتجربة التي لا ترقى إلى معرفة هموم زوجها وآلامه ، ولكن لا تكترث بي كثيرا . دعني أرعى البيت والولد ، وأن أفكر فيك وأحس بالسعادة، ولا شيء أكثر من ذلك .

رئيس البنائين : أيتها المخلوقة البالغة الطيبة ، حتى في هذه الساعة أيضا تبذلين نفسك دون أن تبغي لها شيئا ؟

الزوجة : لقد أعطيتني مائة مرة أكثر مما كنت أرومه حتى في أشد لحظات صباى طيشا .

رئيس البنائين : أيتها المخلوقة حلوة الكلام ، لو نزلت نعمة الله يوما في هذا العالم الكئيب فلا أعرف ماذا ستكون إن لم تكن ما تعطينيه أنت .

الزوجة : كم يريحني كلامك الآن، ويملأني عزاء .

رئيس البنائين : نامي . لقد تحدثنا بما فيه الكفاية .

الزوجة : قلت أنك ستغنى لى .

رئيس البنائين : (ينحنى عليها، ويهدهدها) نامى،يا من بعثت
أطلب لك من المدينة ذهبا ،
ومن فينيسيا ثيابك وحليك .
نامى ، يا من يحيكون غطاء سريرك فى المدينة ،
ويزينه لك اثنا وأربعون نساجا .
(تغمض الزوجة عينيها . تدخل العجوز من الباب فى هدوء . تلتقى نظراتها بنظرات رئيس البنائين، فترسم علامة الصليب)

رئيس البنائين : ترسمين علامة الصليب، أيتها العجوز .

العجوز : كان الله فى العون .

رئيس البنائين : أية قوة جعلتك ترسمين علامة الصليب،وأنت تدخلين هذه الحجرة التى ينام فيها أناس أحياء ؟

العجوز : بدا لى كما لو كنت قد سمعت خطوات الموت تسرى فى البيت . أنا عجوز ، أعرفهويعرفنى .
واذ دخلت هنا خيل لى أنى أراه منحنيا عليها.
(يغنى لها بصوت خفيض)

رئيس البنائين : (كما لو كان يفيق من غيبوبة) الموت فى البيت، فى الفراش ، فى روحى. يا شبح الليل لقد وطأت خشبة نخرة . أيها المصير المظلم، إنى

أتحطم وأندثر. تحية وسلاما. من من أبناء الصنعة في يومنا هذا أهل لمثل هذا الاختيار المشرف من جانب سيدنا اللعين ؟ ولكن الحرية لا ُ مثالي من ذوي الجماجم الصلبة، والشوارب الحديدية . أيتها العجوز الطيبة اسمعي . إنني حر . إنني حر .

(يخرج – تركع العجوز إلى جوار الفراش وتصلي)



المشهد الرابع

(اليوم التالى عند الجسر . رئيس البنائين يقف فى جانب مفكرا . يحيط البنائون والحارسان بعازف العود الذى يعزف على أوتار عوده)

عازف العود : خمسة وأربعون بناء ، وستون صبيا ،
كانوا يبنون على نهر آرتا جسرا .
طيلة الايام يبنون ، ثم يمسى بالليل منهارا .

البناءون : تبا لكدنا والخسران على عملنا .
الأيام الطوال نبنى ، وبالليل يهدم ما بنيناه .

عازف العود : عصفور مر ، وحط على ضفة النهر .
لم يكن يغرد مثل العصافير ولا الطيور ،
بل كان ينشد قائلا بصوت البشر :
لو لم تدفنوا انسانا ،
لن يقوم جسر ،ولكن حذار لا تدفنوا غريبا أو شريدا ،
بل زوجة رئيس البنائين الجميلة ، إدفنوا .

البناءون : الصياح يملأ الجبال ، والدموع تغمر السهول ،
والدروب تفيض بالضفائر المحلولة .

عازف العود : لقد وضعت حراسا ثلاثة :
الشمس على الجبال ، والنسر فى الحقول ،
وريح الشمال الرطيبة عند الجسر ،
لكن الشمس غربت ، والنسر غلبه النعاس ،
وريح الشمال جرفها النهر .
وهكذا أعطيت الفرصة للموت ان يأخذك .

البناءون : الآن ، يا سماء إرعدى ، الآن يا سماء أمطرى .
صبى الأمطار فى الحقول ، وعلى الجبال الثلوج .

عازف العود : محظوظة هى الجبال ، محظوظة هى الحقول ،
انها لا تنتظر موتا ، ولا قاتلا تتوقع ،
بل تنتظر ربيعا ، وصيفا جميلا .

(يدخل المساعد ، وقد ربط ذراعه اليمنى)

المساعد : إنها آتية . لاح لى ثوبها عند ناحية الطريق .

رئيس البنائين : مرحبا بها .

المساعد : ماذا ستقول لها ؟

رئيس البنائين : لا أدرى .

المساعد : لابد أن تجد حكاية .

رئيس البنائين : لا أعرف أن أقول حكايات .

المساعد : لا يجب أن نخيفها ، بل نأخذها برفق، لمصلحتها، حتى لا تحزن .

رئيس البنائين : وماذا لو حزنت ؟ ألم يركبنا الحزن نحن أيضاً ؟

المساعد : مسكينة . ألا نشفق عليها ؟ .

رئيس البنائين : كفى كذباً ، أيها الرجل . كفى أحزاناً . الرقة زادت عن حدها . ألسنا وحوشاً ؟ أنظر إلينا جيداً ، وإلى نفسك أيضاً ، لو استطعت أن تجد مرآة ماذا ترى سوى قطيعاً من الوحوش الضارية جمع بينها شهوة التعطش المظلم إلى الدماء . وإذ شمت رائحة الصيد قبعت مترقبة متحفزة . دعك إذن من الخجل ولنكف عن إخفاء وجهنا الحقيقي .

المساعد : اسكت ، أيها التعس . إنك تتكلم مثل المريض أو الطفل . هل فقدت صوابك ؟ .

رئيس البنائين : تخاف أن تسمع الحقيقة ، أيها الرجل العاقل . لقد استمتعت ليلة امس بأن رأيت رجاحة عقلك ، وكيف طارت إزاء ألاعيب الليل الملعون ، ولكنك رتبت أمورك مع الليل ومع كل شيء ، لم يرتح عقلك وقتاً طويلا . وجدت سريعاً الحل الوسط . وجدت الرقة والإشفاق .

المساعد : أنت الذى أشفق عليك أكثر من أى شخص آخر. أحس كم تتعذب وينفطر قلبي من أجلك ، كما لو كنت أخي ، ولكن لا يحق أن أتركك تتكلم مثلما تكلمت . فنحن لسنا كما تقول ، بل نحن صناع شرفاء عاملون ومقدرون للتبعة . بنا شغف إلى عملنا، ونتوق إلى إنجازه لنتخلص من اللهفة التى تعذبنا . وأنت أكثرنا لهفة إلى ذلك . لم تصيح إذن وتثور طالما تعرف أن ما من سبيل غير هذا السبيل ؟ إننا سنقدم التضحية المطلوبة منا . إنها ضرورة ، حاجة ملجئة ، إنها لعنة ننحنى ونرضخ لها . ليست مهمتنا أن نتصارع مع الشياطين ، بل ان نبنى حجراً فوق حجر بإيمان ورجولة وشجاعة .

رئيس البنائين : (يضحك) إيمان ... رجولة ... شجاعة ... دعوا هذا الكلام الأجوف .. هذا ما كنا ننتظره لكى نشرع فى العمل الموفق بعقل راجح وضمير مستريح . أيها الرفاق ، ارفعوا من روحكم المعنوية .

المساعد : إسكت . ستصيبنا جميعا بالجنون .

(تدخل الزوجة)

الزوجة : تحية وسلاما ، أيها البناءون. (برهة صمت) ماذا حدث لكم ، يا رجالى الطيبون حتى علاكم الصمت والوجوم هكذا ؟

المساعد : عمال الجسر يحيونك ، يا سيدتى .

الزوجة : ولكن ، لم توقف عملكم ؟ ورئيس البنائين الذى بعث يطلبنى على وجه السرعة ، فنفضت يدى من كل شىء ، وجريت ملبية نداءه ، لماذا هو ثقيل القلب هكذا ، ولا يلتفت ناظراً إلى ؟

المساعد : يا سيدتى ،لا تؤاخذيه . الرجل ركبه هم كبير ، ولكن لا ذنب لك فيما ألم به . هناك ، تحت الصف الأول من الأعمدة ، فى حفرة عميقة ...

رئيس البنائين : إسكت .

المساعد : سكت ، يا سيدى .

الزوجة : ما الذى أصابك من هذه الحفرة ، يا رجلى الطيب ؟

رئيس البنائين : ما الذي حدث لى ؟ هل من الضروري أن تسألى عن كل شىء ؟

الزوجة : ألم تدعنى أنت هنا ، فى مكان عملك ؟ أليس لى أن أسأل فيم تريدنى ؟

رئيس البنائين : تسارعين دائما إلى حيث يطلبونك . تجرين لتصلى قبل من ينتظرونك .

الزوجة : أيها البناء، ألست أنت الذى طلبت منى أن أعجل؟ ألم تقل أنك ستنتظر مجيئى توآ .

رئيس البنائين : قلت، وعدلت عما قلته . إنى أقول ، وأعدل عن قولى . لم أعد أعرف أين أوجد . لقد أربكت عقلى بإصرارك وباستجوابك لى عن كل شىء .

الزوجة : حسنا ، فلأقفل راجعة ، إذن .

رئيس البنائين : إفعلى ما شئت .

المساعد : ستنصرف إذن ، يا سيدى ؟..

رئيس البنائين : ستبقى ؟ ستنصرف ؟ يجب على أن ... أن آتخذ قراراً فى كل لحظة ؟

المساعد : إعتقدنا جميعا أنك كنت قد اتخذت قرارك ، ولكن ما دمت قد تخاذلت وتراجعت ..

رئيس البنائين : كف عن هذا الأمر . أعرف ماذا تعتقدون كلكم فى ، وأشعر أنها لو انصرفت سنجرى بعد قليل مثل المجانين لنعيدها . ما من مفر . هذا ما أراه . أتمم حكايتك ، طالما كنت قد بدأتها .

الزوجة : لا بد أنها غريبة جداً ، وصعبة التفسير ، هذه

الحكاية التى أحضرتمونى اسماعها ، طالما أنها تثير كل هذا اللهس .

المساعد : يا سيدتى ، ها هو الأمر كله . وقع خاتم زواجك من يد رئيسنا فى الحفرة التى قلت لك عنها ، وقد قام فى روع البنائين أن هذا نذير شؤم ، وأعلنوا الإضراب عن العمل . خيل لهم أن هذه الحادثة إشارة إلهية بأن الجسر الذى بنيناه أكثر من مرة يدبر لنا كوارث أخرى.

الزوجة : يا رجالى ، كنت أتوقع أن أسمع شيئا مخيفا أكثر من ذلك ، ولكن الآن يبدو لى انكم قد أمسيتم كلكم صبيانا .

المساعد : لا تسلى ، يا سيدتى . طوال النهار أخطب فيهم ، وبعد لأى توصلت إلى أن أجعلهم يعتقدون أنه لو عثر على الخاتم يمكنهم بلا خوف أن يعاودوا العمل ، ولكن ما من أحد منهم يجسر أن يدخل الحفرة ، بل ولا يتركوننى أنزل اليها ولا رئيس البنائين . لقد صور الحبل لهم أنه لكى ينفض السحر لا بد أن تنزلى سيادتك . هكذا هم ، متشبثون بالحياة ، لا يحيدون عن رأيهم ، رغم أنهم صبيان فى تفكيرهم .

الزوجة : أهذا ما يملأك حزنا ، يا رئيس البنائين ؟ سأنزل حالا لأبحث عن الخاتم وأجده .

رئيس البنائين : إفعلى ما يهديك اليه الله .

الزوجة : يا رجلى الطيب ، فى طريق مجيئى ، كانت السماء وضاءة صافية الزرقة ، كما لو كان اليوم بداية الخليقة . وكانت المروج مفعمة بروائح الجنة كلها ، والنور يفيض بالفرحة والغموض . وكان الله متجليا فى هذه الأشياء حتى إنه كان من غير الممكن ألا أفاتحه الحديث، وربما لم يكن لديه وقت للاصغاء إلى . إلا أنه يبدو ان ثمة أحداً ممن هم محل ثقته قد انتبه إلى ، واحداً من اولئك الذين يحملون رسالته إلى البشر . وربما كنت ايضا قد رأيت كل هذا فى حلم ، فأنا بدورى منذ أمس مرتبكة بعض الشىء ، كما ترانى ، ولا اذكر جيداً . ولكن كلمة الله تدفىء اعماقى . وها أنا أجيىء اليك مفعمة بالجرأة والأمل .

رئيس البنائين : ما دمت قد تفاهمت مع ربك يا امرأة فما حاجتنا إلى نقاش آخر ؟ لا بد ان أكون انا أيضا أداة من أدواته على نحوما ، لأنه من

العبث ألا يكون قد أقر هذا العمل الكبير الذى أضعه موضع التنفيذ . وكل هذه الأمور التى تحدث لى لا بد أنه سيرتضيها ويباركها على نحو أو آخر ، والا فيما أمن ؟

المساعد : فلندع الرب فى ملكوته ، ولا نضيع مزيدا من الوقت فى الكلام والجدل . هل انت مستعدة يا سيدتى الطيبة ؟

الزوجة : أجل ، أيها الرجل . أين يجب على أن أنزل ؟

المساعد : تعالى من هنا ، من فضلك .

(يقودها إلى جوار حفرة تحت بعض الأعمدة)

الزوجة : إربطونى . (يربطونها) أعطونى ضوءاً (يعطونها مصباحا مضيئا) ساعدونى على النزول.

(يساعدونها ، وتنزل . يرخى البناءون الحبل)

المساعد : هل وطأت القاع ، يا سيدتى ؟

صوت الزوجة : وطأته .

المساعد : هل وجدت شيئا ؟

صوت الزوجة : إنى أبحث .

المساعد : إمضى فى البحث ، يا سيدتى . إبحثى مرة أخرى ، يا سيدتى الطيبة .

(إلى رئيس البنائين) يا سيدى نحن فى انتظار أن تأمر .

رئيس البنائين : تريدون أن آمر ، يا إخوانى ؟

البناءون : بما تراه ، أيها الرئيس . بما يقوله لك قلبك . بما يريده الله .

رئيس البنائين : أن آمر ، يا تلامذتى ؟ أن آمر ، يا صبيانى ؟

البناءون : بما تريد ، أيها الرئيس . بما تتوق إليه روحك بما تعتقد أنه الصواب .

رئيس البنائين : الصواب ... الله ... الصواب ... الله ... أن آمر إذن ، أيها الأصدقاء ..

البناءون : أيها الرئيس . ماذا تريد ؟ أيها الرئيس .. قل ...

صوت الزوجة : أيها الرجل الطيب ، إجذب الحبل .. لقد بدأ الخوف يتملكنى .. وقواى تخور ..

المساعد : إنته ، أيها الرجل ، لو كنت أهلا لأن تحكم هذا المجموع .. أشفق علينا او اشفق عليها هى أيضا ...

رئيس البنائين : تبغون أن آمر ، يا شجعانى ؟ أن أشفق عليكم ؟ أن أحكمكم ؟ يا رجالى الطيبون الحبل أضحى الآن فى يدى أنا .. يا رفاق جسر آرتا ، يا من تصارعون الحجر ، يا أهل الفخر والمديح

رئيسكم قد أمر بعدم الإشفاق والنكران وبأى شيء آخر تتوق اليه قلوبكم الحجرية .. إنى آمر : سدوا الحفرة .. هيا ..

(يجرى البناءون جميعا إلى الحفرة كما لو كان قد استبدت بهم لوثة جماعية ، ويشرعون فى سدها . يحضر رئيس البنائين حجرا كبيراً ويضعه فوق المواد الأخرى المتراكمة . يعزف عازف العود . يبنى البناءون غطاء الحفرة . وتنطلق العبارات التالية من جانب البنائين والحارس الثانى ورئيس البنائين فى خضم حمية العمل .)

البناءون : الأدوات .. الجير ... الملاط .. هيا .. معا .. أغرب أيها الفقر .. إهجموا ، اهجموا . هيا .. رويدكم فقد وصلنا .. تعالوا بنا فقد خلصنا .. على بركة الله .. هيا .. ماذا أفعل لك أيتها المرأة المنكودة ؟ منذا الذى ينقذك من قدرك المظلم ؟ ليس الذنب ذنب أحد، أيتها الروح الضائعة .. هيا .. تعالوا بنا لننتهى .. لنتحرر . تعالوا بنا ننجو .. هيا .. لنفك السحر .. لنقضى على الحسد .. لنعد بشرا من

جديد .. هيا .. أحضروا الملاط .. الجير والأدوات ...

الحارس الثانى : لماذا ، لماذا ؟ أيها الفتيان ؟ لماذا فعلتم هذا ، يا إخوانى ، يا أبناء الله ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

رئيس البنائين : (يجرى هنا وهناك مشجعا) هيا .. هيا .. عمل .. حرية .. هيا .. طرقة أخرى أيضا .. دقوا بشدة .. إغلقوا عليها الحفرة باحكام .. خشية أن تفلت منكم .. إنتبهوا جيدا .. هيا .. أيها الصناع المهرة ، أيها المجيدون .. فى سبيل مشروعنا الكبير . فى سبيل حريتنا الغالية تجلدوا ... دقوا .. تحمسوا فقد انتزعنا القلعة من الشيطان ، إنتزعنا منه الجسر الملعون اللئيم... هيا ، يا رجالى ، يا فتيانى ، يا اولادى .. دفعة أخرى ... دقة أخرى .

الحارس الثانى : لماذا يا رفاقى ؟ لماذا يا إلهى ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

(تدخل العجوز . يتوقف العمل . تتقدم العجوز)

العجوز : ابنتى .

المساعد : ليس لك إبنة ، أيتها العجوز .

العجوز : (لرئيس البنائين) فتاتى ... زوجتك .

رئيس البنائين : ليس لى زوجة .

المساعد : جمدى قلبك ، تشجعى . كان الأمر ضروريا ..

العجوز : عن أية ضرورة تحدثوننى ، أيها الناس المظلومون ؟

المساعد : حياتها وحياتنا حكمت . الضرورة اقتضاها عملنا .

العجوز : أيها الناس القساة ، ماذا فعلتم يا بنتى ؟

المساعد : للضرورة أحكام ونحن أداتها .

العجوز : أيها الناس المخادعون البغاة أطالبكم بابنتى .

رئيس البنائين : هممت أن أوقفها وأصدها فقالت أنها قد تفاهمت مع ربها .

العجوز : أيها الناس المتوحشون، أين ابنتى ؟ فلذة كبدى.. سويداء قلبى .

رئيس البنائين : أيتها العجوز ، لقد أمضيت حياة بأكملها فى سلام وسعادة ، فتقبلى هذه الصدمة بصبر . لقد عشت ونلت نصيبك من هذه الدنيا، وها هو حسابك قد سدد . الذى كنت تعرفينه انقضى الآن ، فقد قلب القدر صفحة جديدة ... إبنتك الرائعة الجمال ، سيدتنا ، قد ضحت بنفسها ليقوم جسر آرتا . إنها مدفونة فى الحجر .

العجوز : اللعنة عليكم والهلاك .

المساعد : ستسند روحها إلى الأبد دعائم عملنا هذا العظيم، وجمالها سيجعله مزهرا ، ووداعتها ستبعث فيه السكينة ، وطيبتها ستضفى عليه القداسة .

العجوز : اللعنة على الجسر .. اللعنة على العمال وامصيبتاه ..

المساعد : يا إمرأة الزمن الغابر . غيرى كلامك لو كنت تشفقين على البشر ، لأن جسر آرتا لا نبنيه لأنفسنا ، بل نبنيه لهذا البلد الذى نحن فى خدمته ، للشعب الذى يتطلع الينا ، للبشر الذين سيعبرونه فى السنين المقبلة وسينعمون به ، ودون ان يعرفوننا سيتوجهون الينا بالشكر . إسحبى إذن لعنتك ، — أيتها العجوز ، وفكرى فى أنك ستسلمين روحك لباريك يوما .

العجوز : اللعنة على جسر آرتا .. فليرتجف كلما ارتجف قلبى .. وليسقط المارة الذين سيعبرونه كلما سقط شعرى .. اللعنة على البنائين الذين يبنونه .. اللعنة على البلد.. اللعنة على الشعب.. وامصيبتاه.. وا مصيبتاه ..

(تنكب على الحجارة وتبكى . يختلط بكاؤها
من وقت لاخر بما سيلى من غناء)

عازف العود : طالما تأهبت للذهاب فى الرحلة البعيدة ،
أريدك ان تقولى لأمك متى ستعودين للبيت ،
حتى يكون لى رجاء ، ولا يزول عنى الأمل ،
وحتى أملأ لك الفناء زهرا ، وأفرش لك وردا ،
وأجهز لك طعاما للغداء وللعشاء ، وأعد لك
سريرك لترقدى وتنامى .

البناءون : الطريق الذي مرت به لم تعد منه ،
وراحت إلى جبال النسيان وبئر العدم ،
واتخذت من الأرض فراشا ، وبالحجر تغطت .

عازف العود : منذ الذى اشعل النار فى البستان ،
فاحترق سور الكرمة ، واحترق البستان ،
واحترقت ايضا الشجرتان الشقيقتان .
الاولى احترقت وسقطت ، والثانية احترقت
وظلت قائمة .
تلك التى احترقت وسقطت إنتهت متاعبها ،
أما التى احترقت وظلت قائمة فالمتاعب كانت
أمامها كثيرة .

البناءون : ذهبت إلى جبال النسيان ووديان الصمت ،

يا شهر مايو الرطيب ، ويا شهر ابريل الزاهر ،
يا ابريل المثمر ، ويا مايو المدلل الحبيب .

عازف العود : خمسة وأربعون بناء وستون صبيا ،
بنوا على نهر آرتا جسرا .
بئس مصيرها ، والحسرة على قدرها .

الحارس الثانى : ما أسوأ مصيرها . لماذا أيها الفتيان ، لماذا ؟

الحارس الأول : إسكت ، أيها الرجل . هل سنصغى إليك أنت أم الى الهم الذى يأكلنا ؟

الحارس الثانى : لماذا يا أسيادى ؟ لماذا ، يا يسوع ، ويا أيتها العذراء ؟ .

الحارس الأول : إسكت ، قلت لك . ألا ترى أنك تبعث الرعدة فينا ؟

الحارس الثانى : لماذا ، يستبد بنا اللعين ؟ لماذا هذه الخطيئة ، هذه الكارثة الكبيرة ؟

الحارس الأول : قلت لك مرة ، قلت لك مرتين ، أغلق فمك والا أغلقته لك أنا .

الحارس الثانى : حلال فيها كلامى ، يا صاح . لماذا ؟

الحارس الأول : سأقتلك .

الحارس الثانى : أقتلنى ، يا رجل ... لماذا ؟

الحارس الأول : لماذا ، يا رجل ، تسأل ؟ وهل يعرف أحد

لماذا ؟ أم خيل اليك أن ما من أحد غيرك
يتألم ؟ اللعنة علينا ، يا رفاق ، فلتحل بنا
المصائب، وتقع علينا النكبات.. بالله ، كيف
حدث هذا الذى حدث اليوم ؟

(فجأة ، ينشب شجار بين البنائين والحراس،
ويتعالى صياحهم،ويلوحون بأيديهم،ومن خلال
هذه الضجة يتعالى من وقت لآخر صوت
الحارس الثانى متسائلا : لماذا ؟)

البناءون والحراس: كيف حدث هذا ؟ كيف فعلتموه ؟ كيف
استطعتم ؟ كيف احتملتم ؟ لماذا ؟ من كان
السبب فى هذا الذنب ؟ من الذى بدأ ؟ من
الذى جعلنا ننقاد ؟ من الذى أعمى بصائرنا ؟
لماذا ؟ ذلك الذى يدعى السطوة .. ذلك الذى
يتخذ القرارات .. ذلك الذى يصدر الأوامر ..
لماذا أصغيتم اليه ؟ لماذا ؟ كان الأمر ضروريا ..
كان الأمر ملحا ..كان الأمر خدعة وإفكا ..
كان خطيئة وشرا . كان استهتارا وضلالا ...
كان رعبا وجبنا .. لماذا ؟ لنتخلص من السحر..
لننقذ أجورنا عن المقاولة .. لنجد من جديد
السكينة والبهجة .. ولكنا وجدنا الاضطرابات

والمشاحنات.. وجدنا العناء والأخفاق.. لقينا وقتا أسود .. لستم رجالا .. أنتم فاسقون ... أنتم نهابون .. صعاليك .. لصوص تافهون رعاع أدنياء .. تستأهلون الرثاء . كلنا .. كلنا ضائعون ينخر فينا السوس، ومخابيل .. لماذا ؟ لماذا ؟ .

(تنهض العجوز وقد داخلها الهدوء . تتقدم)

العجوز : ليكن الجسر حديدا مثل قلبك .. ليكن المارة حديدا مثل شعرك .

البناءون : (وقد دخلت السكينة قلوبهم) آمين .

العجوز : إهدئي ، يا بنتي . لن تزعج نومك اللعنة التي صببتها على جسر آرتا . لقد سحبتها ما دامت هذه كانت مشيئتك . فليستند الجسر المرموق عليك، وليتطهر من أجل خاطرك. ستمنحه العذراء الصلابة والمحبة ، وتجلب اليه بركة السماء . وهؤلاء العمال المساكين الذين أعمتهم شهوة جامحة، هي ضرورة عملهم الشاق، فأغلقوا عليك الحجر ، منقادين لأمر أعلى من إرادتهم فليغفر لهم أيضا . صبيان هم هؤلاء الملتهبون ، متوحشون وأبرياء . (إلى رئيس البنائين) أما

أنت، يارجل المصائب ، يا من فكرت وقررت ثم أمرت ما الجدوى أن أصب عليك لعنتى أو أن أغفر لك ؟ منذا الذى سيقف إلى جوارك بعد الآن، ويسندك ويشد أزرك، بل ومنذا الذى يناصبك العداء ؟ وحدك انفصلت إلى الأبد عن البشر . لم تعد بعد الآن منا، ولا أحد يقبلك. سينكرك رفاقك حينما يفيقوا من سحرهم ، وشعبك سيلقى بك بعيدا عنه ، وسيهجرك ابنك أيضا عندما يحس فى حضرتك هول العزلة المحيطة بك . ما من قلب بشرى سيحن اليك بعد الآن، ويخفف من مرارتك . ستهيم من بلد إلى بلد يتيما غريبا. سترتجف أبدان الأولاد عندما تمر بهم .. ويل لك ، ويل لك ..

(تنصرف . برهة صمت)

المساعد : أيها الرفاق ، عملنا يدعونا . (برهة صمت) أيها الرفاق ، ماذا تنتظرون ؟ (برهة صمت) ماذا دهاكم ؟ أيها الرجال المأخوذون ، نسيتم أنفسكم هكذا ومضيتم تنظرون إلى فاغرى الأفواه ؟ إنى أناديكم ، إنه وقت العمل (تهب من جانب البنائين همهمات تنطوى

على التهديد) لم تزمجرون هكذا، وتتنمرون؟ أهو تمرد حقيقى اذن ؟

البناءون : (يلقون بأدواتهم) فليسقط .. فليسقط .. فليسقط ..

المساعد : أيها الرجال المعوجون المخابيل ، أتتنكرون لعملكم ؟ أتتنكرون لمشروعكم الكبير؟

البناءون : فليسقط المشروع .. فليسقط العمل ..

المساعد : أتتنكرون للعهد الذى قطعتموه ؟ أتتنكرون لرئيسكم ومعلمكم ؟

البناءون : فليسقط ، فليسقط القاتل .

المساعد : أنتم القتلة .

البناءون : فليسقط من أضلنا .. فليسقط تلميذ الشيطان .. فليسقط الخائن الذى سحرنا .. الذى جلب علينا اللعنة .. الذى جعلنا نأثم .. فليســقط جسر آرتا .. فليسقط السفاح .. فليسقط المخادع .

رئيس البنائين : (يسيطر على الموقف فجأة) أيها الرفاق ، أوقفوا هذه الحركة.. تذكروا من أنتم، وأى هدف لم شملكم هنا على شاطىء هذا النهر .. هل أنتم مجرد جماعة الحمت عرضا حتى تنهارون هكذا منذ أول ذبابة تلدغكم ، دون تدبر أوتفكير ؟

ألستم بنائى ؟ ألست رئيسكم ؟ ألم نذرع اليونان معا خطوة خطوة ؟ ألم نصارع الحجر سويا بعشق وألم ، وأقمنا القلاع والقصور وأبراج الكنائس عالية تطاول السموات الزرقاء ؟ ليكن الشعب وحده موضع اعتباركم . إنه يكن لكم الاحترام ، ويضع فيكم ثقته . إنه ينتظر بلهفة مشروعكم الجديد الذى وعدتموه به ، أعظم مشروعاتكم قاطبة . إن أرواحنا تنتظره بلهفة هى أيضا ، واذا لم تشهده منتصبا يلمع فى ضياء الشمس كالذهب فانها لن تنجو من العاصفة الهوجاء التى تكتسحها . أفيقوا ، أيها الرفاق . لن ابتعد من جانبكم حتى أوصلكم إلى مرفأ الخلاص . وبعد ذلك ، إطردونى اذا لم يكن يروق لكم وجهى ، إنبذونى ، واهجرونى كما شئتم .. هذا حق اكم وعدل .. أما الآن فى ساعة المعركة فانى أهيب بكم وأصيح فيكم .. إلى الأمام ..

(يجمع البناءون أدواتهم فى صمت ويقتربون من الحجارة . ويرتفع رويدا رويدا من الجمع جلبة العمل)

عازف العود : خمسة واربعون بناء ، وستون صبيا بنوا على نهر آرتا جسرا ، فكف نواحهم ، وجفت دموعهم.

الحارس الثانى : لماذا ، أيها الفتيان ؟ لماذا ؟ .

(يخر فى أحد الأركان وينخرط فى البكاء . . تمضى ايقاعات العمل وجلبته متزايدة)

عازف العود : يا مركبي المثلث القلاع المحمل بالفضة ،
الذى أشرعتك من حرير ، ومجاديفك من فضة ،
وحبال أشرعتك من الذهب المصفى ،
وحبال أشرعتك من ذهب ،
وحبال أشرعتك من ذهب ...



المشهد الخامس

(سنين عديدة مضت . نحن على أبواب المدينة التي تبدو على يسار الناظر : قلعة ، مبان كثيفة ، باب وأبراج كنائس. الخلاء إلى اليمين . في أغوار المسرح ، يبدو الجسر شامخاً ومتزناً . الوقت ليلا . ثلة من الفتيات والفتيان يغنون ويرقصون . العازف العجوز يعزف العود . يجري أولاد صغار بين الراقصين ضاحكين صارخين)

الفتيات : تعالوا نغني ، ومن يغار فليختنق ،
وليشرب علقما مرا ليشفى من غيرته .

الفتيان : إعزف ، أيها العازف ، جيداً ، إعزف بشدة وبقوة .
ربما سحرناها ، سوداء العينين تلك .

الفتيات : ليشرب من يغار علقما، وزيت الزيتونة البرية.
إنا نغني جماعة .

الفتيان : إعزف ، أيها العازف، جيداً ، وسأنقدك أجرك .
سأنتزع من الرقص فتاة أعطيها لك أجرا .

الفتيات : لاأغنى حبا ، ولا أغازل أحدا .
انى أغنى فحسب لأسعد بعالمى العلوى .

الفتيان : ملاك انت، ياقرة عينى ، ورقصك رقص ملائكى.
انك تملئين قلبى عذابا، إذ تخطرين بخطو ملائكى.

الجميع (معا) : فلأغنى وأسعد ، وألعب وأضحك .
الصبا لم يعد يباع حتى أشتريه .
(تدخل فتاة وقد استولى عليها الفزع . يتوقف الرقص) .

الفتاة : إنه آت من جديد ، هذا العجوز ، الشبح.

الفتيان والفتيات : أما زال هنا ؟ أين رأيته ؟

الفتاة : هناك ، فى الغاب . كان قادما نحونا . ويالشد جزعى .

الفتيان : لنقل له أن ينصرف . لانريده . من حقنا هذا .

الفتيات : كلا . كلا . لننصرف نحن .

أحد الفتيان : نحن فى بلدتنا ، وهو غريب .

الفتيات : كلا . هيا لننصرف .

فتى ثان : عمن تتكلمون ، يا أولاد ؟.

الفتى الأول : إستيقظ . ألم تعلم بخبر هذا العجوز الذى يهيم مثل الشبح حول الجسر منذ أول أمس ؟.

الفتى الثانى : بالتأكيد، رأيت عجوزاً ، ولكن ماذا فعل بكم ؟

الفتى الأول : لاتعجبنا طلعته . إنها لاتروق لأحد . مامن أحد يحدثه ، وتسرى الرعدة الباردة فى أوصال من ينظر فى وجهه .

الفتيات : لننصرف يا أولاد ! لننصرف !

فتى ثالث : لابد أنه قد ارتكب جرما ، وأتى للاختفاء فى بلدتنا .

الفتى الثانى : أليس من الجائز أن يكون مجنوناً ؟

فتى رابع : إنه ليس مجنونا ولامجرما . لوأردتم رأيى ، هو ...

الفتيان والفتيات : ماذا ؟ ماذا ؟ أتخاف أن تقول ؟

الفتى الرابع : لابد أنه أبرص !

الفتيان والفتيات : أبرص !

(يدخل رئيس البنائين وقد تقدمت به السن كثيراً وانحنت قامته واتكأ على عصا . يتسلل الفتيان والفتيات منصرفين، وقد ندت منهم همسات فزعة، وصيحات خفيضة . يهز رئيس البنائين رأسه ثم ينظر إلى عازف العود الذى يمضى فى

العزف دون أن يلحظ ماحوله . يمضى رئيس البنائين إلى أحد الأركان ويجلس متعبا)

رئيس البنائين : سيرتجفون عند مرورك . هكذا قالت . ستهيم فى الدنيا غريبا وحيداً .سينكرك رفاقك والشعب كله وابنك . هكذا قالت .ماذا بوسع ابنى أن يفعله ؟ كيف يمكنه أن يرتاح إلى جوارى؟ يفر الشباب موليا مثل الطير الخائف ماأن يشعر باقترابى ، كما لوكانت الأرض تجف تحت خطواتى.

عازف العود : (عازفا) ليكن الجسر حديداً مثل قلبك . ليكن المارة حديداً مثل شعرك .

رئيس البنائين : أعن هذا الجسر تتكلم، أيها الرجل الطيب ؟

عازف العود : عنه أتكلم ، وهل أعرف غيره ؟

رئيس البنائين : إلى قلب امرئ وشعره أشرت . من كنت تقصد ؟

عازف العود : إمرأة شابة بالغة الجمال ، وروحها مفعمة بالوداعة مثل قديسة. إمرأة من الزمن القديم .

رئيس البنائين : وماذا كان شأن المرأة التى تشير اليها بالجسر ؟

عازف العود : دفنت — هكذا يقولون — فى أسس الجسر لترسى دعائمة،لأنه كان ملعونا ، وبذلك بورك

الجسر، وحلت به النعمة . إنها حكايات يرويها
الناس .

رئيس البنائين : مفارقات، وأحداث غريبة .

عازف العود : الحياة مليئة بالمفارقات والغرابة . هيهات أن
يفهمها المرء كلها .

رئيس البنائين : (متطلعا إلى الجسر) كان هذا الجسر نصراً
عظيما ، ثمرة السنين الطيبة . لابد أن روحهم
قد لقيت العناء والعنت . ولابد أنهم من أجل
هذه المرأة التعسة قد تألموا كثيراً .

عازف العود : حكايات قديمة . منذ الذى عاد يذكر الآن!
(يعزف) .
خمسة وأربعون بناء ، وستون صبيا .
كانوا يبنون على نهر آرتا جسرا .
طيلة الأيام يبنون ، ثم يمسى بالليل منهارا .

رئيس البنائين : لابد أنهم قد تألموا ، وبكوا .

عازف العود : لولم تدفنوا انسانا ، لن ينتصب جسر ،
ولكن حذار، لاتدفنوا يتيما، أو غريبا، أوشريدا ،
بل زوجة رئيس البنائين الجميلة

رئيس البنائين : فلتعمها الراحة والسكينة .

عازف العود : مضى واحد بالملاط، والآخر بالجير،

وأخذ رئيس البنائين حجراً كبيراً وألقاه .
ويل لأقدارنا ، والخسران على مصائرنا .
ثلاث شقيقات كنا ، وثلاثتنا للشقاء كتبنا .
الدانوب شيدته إحدانا ، والأخرى شيدت الفرات ،
وأنا صغراهن شيدت جسر آرتا .

رئيس البنائين : أيها الرجل ، إنك تضيف من عندياتك أشياء . الدانوب بعيد ، والفرات أشد بعداً .

عازف العود : الأغنية تقول هذا ، وطالما تقوله فلابد أن ثمة ما تعرفه .

رئيس البنائين : ومن أدراك أن زوجة رئيس البنائين كانت لها شقيقتان ؟

عازف العود : الأغنية تقول ذلك . الأغنية تعرف ماتقوله .

رئيس البنائين : إذهب لتسأل عن أناس كانوا هناك .

عازف العود : الأغنية كانت هناك . الأغنية فى كل مكان .

رئيس البنائين : الأغنية أنت الذى تنشئها .

عازف العود : أنا لاأنشىء شيئا . أنا أسمع همسات النسيم المنساب تحت الأعمدة ، وفى ثنايا الغاب ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر ، وذلك عندما تعود هى بالليالى فى مثل هذه الساعات ، وتهيم حزينة . اصغ .. إصغ .. (يعزف) .

ألبسيني ثياب العرس ، فانى أتركك ، وداعا .
وعندما يجيئك البناء لاتحزنيه .
إبسطى له المائدة ليتغذى ويتعشى ،
واخرجى خاتم الزفاف وهداياه ،
واعطيها للبناء ليخطب غيرى ،
طالما أنى سأتزوج بلورى ، واتخذ الموت قرينا..
(بينما ينشد العازف الأبيات السابقة ، يظهر فى أغوار المسرح شبح الزوجة مقتربا . يراه رئيس البنائين ، فينهض مأخوذاً ، ثم يركع)

رئيس البنائين : زوجتى . زوجتى . مباركة أنت .

عازف العود : ما الذى يجعلك تتمتم ، يا عبد الله ؟ ألا تسمع ؟ إيه ، أيها المواطن ألا تسمع ما أقول لك ؟ استيقظ . هاهو رجل لايعرف ماذا يقال له . أنت بدورك مختل العقل ، على مايبدو . عبث أطفال . هذيان عالم مخبول ، مرتج الصواب ، مصاب بالدوار ، قسما بالعذراء المقدسة. فلأ نصرف لحال سبيلى . مع السلامة ، مع السلامة :
(يمضى منصرفا بخطوات عرجاء) ٥

رئيس البنائين : خيال أنت أم ظل ؟

الشبح : أنا أملك .

رئيس البنائين : أى أمل لى ، أيها المخلوق الخيالى ، بعد ذلك اليوم الملعون الذى فقدت فيه كل شىء إلى الأبد ؟

الشبح : هذه اللحظة كانت أملك يا بنائى ، وها أنا أجلب الأمل اليك .

رئيس البنائين : يا امرأة ، هل تصفحين عنى ؟

الشبح : أنا صفحت عنك من قبل، أيها الرجل الطموح الذى مررت بتجارب مريرة. صفحت عنك منذ الساعة المرموقة التى كنت قادمة فيها لألقاك فى عمائر الجسر بناء على دعوتك، والتقيت فيها بعابر السبيل على قارعة الطريق ، وبسط أجنحته الذهبية، وخاطبنى لأكون على بينة ، كما قال ، ولا أنساق كالحمل الغرير. هذا ما كانت تقتضيه - على حد قوله - العدالة ، وعند تأملت أين أنا ذاهبة بكيت، وغفرت لك .

رئيس البنائين : انك تتعطفين على ، يا امرأة . انت يا من منحتنى السعادة عندما كنت على قيد الحياة ، لأنى منذ ذلك اليوم وأنا لا أحيا . أنا عظام نخرة ، جثة هامدة ، ولا مقصد لى أذهب اليه . الرياح تقذف بى هنا وهناك بلا حساب ، ومنذ ذلك اليوم الشيطانى دفنت كل شىء معك. لم يبق لى

إلا العدم . ذهب عملي أدراج الرياح . أخذوه وولوا مبتعدين عني ، كما لو كنت مصابا بالطاعون أو البرص . لم يوجهوا إلى قولا جارحا ولا لوما . ويا ليتهم ألقوا في وجهي سبابهم ، أو خرجوا لمنازلتي، أوقالوا ما بغيتهم ، ولكن كلا ، إبتعدوا عني فحسب ، وتحاشوني. ليس لأحد شكوي ضدي ولا أحد يطلب مني شيئا . تركوني هكذا أهيم كصعلوك لفظه حتى الصعاليك .

الشبح : أيها الرجل المتين الراسخ البنيان أضحيت مثل غصن انتزع من شجرة كبيرة .

رئيس البنائين : راح الولد أيضاً ، وراح كل شيء. راحت حماستي وحبي للعمل . سددت ما علي ، وصفيت حسابي ، وصفت حساباتها معي الشياطين ، وولت بدورها أيضاً . السنين تلو السنين همت على وجهي في قرى ومدائن ، في بحور وجبال . لم يطقني أي مكان . الرحيل ، الرحيل إلى مكان آخر على الدوام ، إلى مكان أبعد على الدوام ، خوفا من أن أتخفف مما بي ، وأضحى من جديد أنا ، والكن أنتهى الأمر . كل الطيور طارت . لم يخف ما بي. وها أنت تريني ، قد عدت مثل

القاتل الذى يحوم بالليل حول مكان جريمته .
(ينحني ويبكى — يسمع غناء الفتيان والفتيات مبتعداً ، ثم يتلاشى)

غناء : شفتاك زيزفونة ، وخدك تفاحة .
نهداك جنة ، وجسدك زنبقة .
أود أن أقضم الزيزفونة ، وألثم التفاحة .
أدخل الجنة ، وأضم الزنبقة إلى حضنى ...

الشبح : أيها الرجل القوى أضحيت ضعيفاً ، وتجتاحك الهموم مثل طفل صغير .

رئيس البنائين : قوتى تخلت عنى . لم أحتمل حتى الحبل أضعه حول عنق ، كما قلت لك . جفت فجأة لهفاتى ، وانطفأت النار التى فى دمى . أضحيت خائر القوى ، وساقاى سرت فيهما الرعشة . أضحيت بلا كبرياء ولاخجل ، وما أن أنجز عملى حتى وجدت كل قواى قد امتصت ، ونضب المعين .

الشبح : إهدأ ، أيها الرجل الشريف ، أيها الرجل العادل ، الرجل الهالك . أكبرنا تضحية هو انت والله ، ولست أنا . إهدأ ، إنى أجلب اليك السكينة ، وراحة البال .

رئيس البنائين : أيتها المباركة .. أيتها المباركة .

(يرقد على الأرض ، ويروح فى النوم . يخيم الظلام . . يتعالى رنين الأجراس . تتجمع على المسرح أشباح أناس . وبعد هنيهة ترتفع من جمعهم المظلم صلاة : « الذكرى على مر الأجيال باقية . الذكرى على مر الأجيال باقية » يعم الضياء من جديد « ويرى الناظر قساوسة يرتدون مسوحهم ، ويحملون رئيس البنائين ميتا ، وقد تجمع من فوقهم قوم كثيرون كما فى لوحـــة دفن الكـــونت أورجاف ، لإلجريكو ، وفى أغوار المسرح يلمع الجسر وضاء . يضعون الجثمان ببطء على نقالة . تنتهى الصلاة ، ويتكلم واحد من القوم موجهاً خطابه من فوق الجثة إلى جمهور النظارة ، بصوت جهورى ترافقه دقات الأجراس)

المواطن : إسمعوا ، أيها الناس . إسمعوا أجراس الموتى . إسمعوا نهاية المأساة ، نهاية كل مأساة ، نهاية كل حماسة متأججة وكفاح . إسمعوا الصوت المؤذن بالراحة والطهارة . إسمعوا صوت القدر عند مغرب اليوم الدافىء الذى ينقضى . يا أهل المدائن والحقول والجزائر . وأنتم يا من تركبون

البحار البعيدة ، إسمعوا أجراس المجد . إسمعوا كيف يشتت الموت كعاصفة صيف سحابة الحياة القصيرة بضربة واحدة ، وكيف يحتشد الجمع مدهوشا حول الجثمان ، ويتأمل الرجل وطلعته النقية المتحررة . إســـمعوا ، يا أهل هذه البلد ، إسمعوا الأجراس التى تتعالى جلبتها من أغوار الزمن السحيقة . إسمعوا لغة الأسلاف والعظة التى يقولها الثرى والحجارة والأبنية القديمة الموشاة بالذهب . إصغوا إلى الكبرياء والرجولة ، وقداسةالعمل المتقن ، والتضحية الإنسانية. إسمعوا ، أيها الناس الذين دوختكم اضطرابات الزمن المريض (عندما ينتهى الخطاب يحمل أربعة مواطنين النقالة ويمضون بالميت نحو المدينة بخطـــوات بطيئة ، يتبعهم القساوســـة والجموع ، وهم يرتلون الصلاة «الذكرى على الأجيال خالدة » .

(انتهت)

فهرس

صفحة

ظهر فى هذه السلسلة

العدد	المسرحية	المؤلف	المترجم
١	راس الآخرين	مارسيل ايميه	د. محمد عنيمى هلال
٢	المتوحشة	جان آنوى	الاستاذ يحيى سعد
٣	القديسة جون	برناردشو	الاستاذ محمد محبوب
٤	بلدتنا	ثورنتو وايلدر	د. محمد اسماعيل الموافى
٥	الليلة نرتحل والجرة	لويجى بيراندللو	الاستاذ محمد اسماعيل محمد
٦	الاستثناء والقاعدة محاكمة لوكولوس	برتولد برخت	د.عبد الغفار مكاوى
٧	العادلون	البير كامى	الاستاذ بسيم محرم د.ريمون فرا سيس
٨	سبع مسرحيات	يوجين اونيل	د. ميم عطية
٩	رومولوس العظيم	فريدرتش درنمات	الكاتب انيس منصور
١٠	ليونس ولينا ، فويسك	جورج بوشنر	د.عبد الغفار مكاوى
١١	الشياطين	جون هوايتنج	الاستاذ محمود محمود
١٢	قطعة على نار	تنيسى وليامز	د. محمد سميرعبد الحميد
١٣	مركب بلا صياد	اليخاندرو كاسونا	د.محمود على مكى
١٤	جسرآرتا «الثمن الفادح»	جورج ثيوتوكا	د.نعيم عطية

تحت الطبع فى هذه السلسلة

المسرحية	المؤلف	المترجم
اندروماك	راسين	د.طه حسين
المستجيرات	ايسخيلوس	د.على حافظ
هيكابى	يوريبيديس	د. محمد محمود السلامونى
روميو وجوليت	شكسبير	الشاعر احمد رامى
عدو البشر	موليير	د. محمد غنيمى هلال
مدرسة الأزوج،سجاناريل	موليير	د. محمد حسن عون
الحداد يليق بالكترا(ثلاثية)	اونيل	د.لويس مرقص د فخرى قسطندى
قيصر وكليوباطرا	برناردشو	د.اخلاص عزمى الأستاذ احمد النادى
ا.ر.ا	تشابيك	د.طه محمود طه
حفلة كوكتيل	ت.س.اليوت	الشاعر صلاح عبد الصبور
بيكيت	جان آنوى	الاديب سعد مكاوى
أرض النفاق أوكل شيء فى الحديقة	جايلز كوبر	د.محمد اسماعيل الموافى وعلى محمود
لوثر	جون اسبورن	الأستاذ نعيم جاب الله
بعد السقوط	آرثر ميللر	الأستاذ على شلش
متعة العيش	وليم ساروريان	الأستاذ محمود محمود
عطيل يعود	كازانعزاكيس	د.نعيم عطية
السيد بونتيلا وتابعه	بريخت	د.عبد الغفار مكاوى
الفوريلا	يوجين أونيل	د.محمد اسماعيل الموافى

تحت الترجمة لهذه السلسلة

المسرحية	المؤلف	المترجم
دون جوان	موليير	يحيى حقى
سائر مسرحيات	موليير	يحيى حقى
المستجيرات	يوربيدس	د. على حافظ
سائر المسرحيات	اليونانية	د.محمدمحمود السلامونى وآخرون
حالة الحصار	البير كامى	د.فؤاد ذكريا
الممسوسون	البير كامى	اسماعيل المهداوى
الجلسة سرية	جان بول سارتر	د.فؤاد ذكريا
الناشزون	آرثر ميللر	محمد رجاء الدرينى
المرفه	جون اسبورن	عبداللهفريدهشوقىالكيلانى
شهادة لا تقبل	جون آسبورن	د.شوقى السكرى
سائر مسرحيات	جون اسبورن	د.شوقى السكرى
بيت آل روزمر	ابسن	د.عبد الله الحافظ
الشاذ	براندين بيهان	نعمان عاشور
الرهينه	براندين بيهان	د.عادل سلامه
جان دارك	كلوديل	د.فؤاد ذكريا
فى انتظار اليسار	كليفورد آوريتس	الشاعر محمد انعم
أجامنون	يوروبيدس	د.لويس عوض
جريمةقتل فى كاتدرائية	ت.س. اليوت	الشاعر صلا عبد الصبور
وكيل العمارة	هارولد بينتر	د.محمد قدال
مسرحيتان	هارولد بينتر	د.وداد جمال
الذى أوله عسل	شيلا ديلانى	عبد الله فريد
متعة الأبله	روبرت شروود	امية ابو النصر
الثعالب الصغيرة	ليليان هيلمان	د. محمودشكرى مصطفى
بلاتون كريتشيت	الكسندر كورنيتشوك	د.عوض جرجس
سبع مسرحيات	تنيسى وليامز	د.جمال الدين الرمادى
فاوست	بول فاليرى	عبد العاطى جلال